عبد الباقـي يوســـف

خلـف الجـدار

الرواية الفائزة بجائزة دبي الثقافية للإبداع

2002

أولَجَ راجي عبد الكريم رأس المفتاح الأصفر الصغير في ثقب القفل البارز، دَسَّه قليلاً ثم حرّك اصبعَيه تِّجاه اليَمين، فانفَرَجَ البابُ الصَغيرُ إثر طرقة صغيرة سمعها بالكاد .

أرسَلَ بَصره إلى الداخل، فتراءت رسالة مستلقية على ظهرها، ترك كفَّه المُعلَّقة بالمفتاح، ومدَّها إلى الجسد المُسجَّى على ظهره, سحبه كما يسحب الطفلُ عصفوراً من عشِّه وعلى عَجَلٍ دسها – دون أن ينظر إليها – في جوف كتاب يتأبَّطه، ثم عاود قفل الباب الصغير بحركةٍ ميكانيكيَّةٍ، وهَبَطَ دَرَج مبنى البريد مُتَّجِهاً صَوبَ موقف باص النقل الداخلي، عندذاك تراءى له حشدٌ كبيرٌ في الموقف، فأدرك مُجدَّداً بأنَّه كائنٌ موجودٌ في الحياة وأنه ينتمي إلى شريحةٍ يمكن لها أن تلتقي بسهولةٍ في هذا الموقف وفي أوقاتٍ مُحددة، وللتأكد من إحساسه بحقيقة أنه كائن مودجود حقاً في هذا المكان, تأمَّلَ وجوه نساء متقدِّمات في السن، خارجات للتو من دوائر حكومية، هي القامات البشرية ذاتها التي تتراكم في هذا الملاذ ذات الوقت باستمرار .

استدار إلى الخلف مسح وجوهاً بائسة لنساء في أواخر أعمارهن يجلسن بثيابهن الشعبية العتيقة على الرصيف المهترئ وينادين بأصوات كئيبة متداخلة: سكر.. شاي.. سمن.. دخان .. اليوم عيد مربح مانريد.

أطفال حفاة شبه عراة على الأغلب أحفادهن يصيحون بين وقتٍ وآخر نيابة عن جداتهم، يتحسَّس بكفٍّ على كتفه، يشعر بأنه استيقظ من حلم و يستدير نحو الخلف، يقع بَصَرُه على وجه امرأة ثلاثينية تحمل بيدها قمّاطاً تبرز من أعلاه سماة وجه طفل رضيع, يتأمل وجهيهما بشكل مستغرق وكأنه نسي نفسه, توقظه المرأةُ مرةً أخرى وتمدّ إليه ورقة بالية، يشعر بأنها أيقظته مرة أخرى من استغراقه في ملامح وجهيهما.

وبعد لحظات يصوّب نظرة استغراقية أخرى إلى الورقة التي تهتز كورقةٍ أخيرةٍ على شجرة الخريف, يتناولها، يقرأ: أنقذوا هذه المرأة من الجوع.. أنقذوا رضيعها من الموت, لاأحد لها غيركم.

يعيد الورقة إلى كفِّها، يدسّ يده في جيبه، يحصها بورقةٍ نقديةٍ، تتناولها المرأة وتمضي داعيةً له بطول العمر وتحقيق كل أمنياته.

يحس بسائلٍ حارٍّ يتضرَّج من جَبهته، يتناهى إليه نداءٌ خافتٌ:

سترتمي على الرصيف يا راجي، أسند ظهرك إلى عمود الموقف.

– الاستسلام إلى العمود خطوة أولى من خطوات الاستسلام النهائي الذي لاوقوف بعده، أنا أدرك هذا جيداً، لا شيء البتة، يحدث هذا لي من سوء التغذية وقلَّة النوم، معدتي تعتصر جوعاً، الشهر هو الثالث الذي لم أذق فيه طعم لحم أو حبَّة فاكهة، مَرَضي هو الجوع، الجوع فقط وعندما أشبع أشفى وتزول كل هذه الأعراض.

– مرضك في الأعلى يا راجي، في الجمجمة، التفكير المتواصل يذيبك، يعطب أعضاءك.

– أتريد لعقلي أن يُصدّي لقد أتى ليعمل وإلّا لِمَ يمتصّني.

– أنت تُحمّله المشقَّة أكثر من طاقته، أعضاؤك ترتجف الآن ولا تحتمل شراسة هذا الفعل، خذ قسطاً من الراحة الفكرية، عندئذ سوف تتمتَّع بلياقةٍ بدنيةٍ وفكريةٍ، وعليك أن تُخفّف شيئاً من أمر هذه العزلة.

يمكن لك أن تمضي ليلةً في بيت صديق، أن تتعرف على بعض أصدقاء، أن تمضي ساعتين مع صديقة.

عندئذ لن تهتز أعضاؤك أمام العقل، عندئذ ستستجيب له وتتضافر معه، لاتعقد كل شيء على نفسك، دع المجهول يفعل مايشاء ويُخفّف عنك, أنتَ لستَ مسؤولاً ليس عن العالم فحسب، بل لستَ مسؤولاً مسؤولية كاملة حتى تجاه نفسك.

- سأفعل شيئاً ما، لديَّ إمكانات ماديَّة، سأفكّر بكيفية جلبها، أشعر حقيقة بأن جسدي يذوب وهناً, يحرقه فتيل شراسة التفكير.
- ماذا ستفعل؟

– لنفكر معاً، أعنّي على الافتكار.

– الآن أنتَ في الشارع، التفكّر هنا ليس مُناسباً بالإضافة إلى كونك في حالةٍ نفسيةٍ وجسديةٍ غير مهيأة، أنت مُنهك أخشى الآن وقوعك على الأرض.

– سيبقى الاستناد على العمود خطوة ما قبل الوقوع على الأرض وأنا الآن قوي لأنني لم أصل إلى خطوة "الما قبل" الجرباء هذه.

– أقترح أن تمشي ما رأيك؟

– معك حق, لأفترض أن دواليب الباص انفجرت أو أُغمي على السائق أو شُلَّ الباص عن الحركة لن أنتظره يوماً كاملاً، أمشي أقرب من أن انتظر وإذا جاء سأصعد في موقف آخر, باصات حدباء مخلَّفات الحرب العالمية الأولى أصلحوها ودفشوها على غروبنا، ننتظرها ساعتَين لُتركبنا نصف ساعة وفي نصف الطريق تُقرّر هي أن تركبنا عندما تقذفنا لندفعها حتى اللهاث.

رفع رأسه وألقى نظرة فاحصة إلى آخر الشارع، لم تقع على أي شكل للباص، مدَّ خطوة في طريق البيت وقرر المسير مكرهاً.

بعد خطوات أخرى تحت الشمس, تذكر الكتاب الذي معه, فوضعه في كفّه اليُمنى و رفعه إلى الأعلى في محاولةٍ لحماية رأسه من أشعة الشمس الملتهبة.

إلى أين أمضي..؟ إلى أي جهة..؟ كل الجهات تأخذني إلى مكانٍ واحدٍ مُرعب.

أمشي بالرغم عني، الآن سيرميني هذا الصراع إلى صراعٍ أشدّ قسوة، سأجلي الصحون، أنظّف البيت أمضي ساعة في إحضار الغداء أستحم أبدّل ثيابي أبحث عن لحظة استقرار واحدة ولا أجدها، لدي رغبة مغلية في أن أتمدد الآن على ظهري في مطرحٍ رطبٍ وليكن قبراً، أنام شهراً كاملاً ألبث غافياً، راحة الجسد لذة يمكن للمُنهك أن يتذوَّقها مثلما يتذوَّق أعظم لذة جسدية.

- احذر يا راجي لا توشك على الاستسلام للأهواء, لاتنس للحظة واحدة أن طفولتك مرَّت بمرحلةٍ بالغة السوء، احذر ستقع بسرعة وتدمّر مستقبلك الذي لا شيء لك غيره، أنت قابل للسقوط أكثر من

غيرك، لا تستسلم لرغباتك، قدها بمهارةٍ مثلما يقود الراعي الماهر قطيعه، لا تدع القطيع يقود الراعي. ليس الرزء في لحظات الاستمتاع، إنها ستعكس على سلوكك اليومي في نفسك وفي الحياة، هل تريد أن تكون حماراً؟

- يكفي ما قلته لي، متى سينتهي هذا الصراع بينك وبيني؟ ولصالح مَن سينتهيَ؟ تُرى أأنت على صواب أم أنا؟ تُرى أتتألَّم مثلي أم أنك تلقي الكلام على عواهنه؟

الآن أريد شيئاً واحداً هو الوصول إلى البيت.. ثلاثمائة ألف سيارة تمشي في المدينة ولا واحدة تتمهَّل لتوصلني، لتنقذ دماغي من هذا الغليان. هل عليَّ أن أتحوَّل إلى كلب لأركض وأقفز إلى مؤخرة أي شاحنة، في أي مدينة بائسة أنا، لو تحوَّلتُ إلى أرنبة لما لبثْتُ خمس دقائق في مكاني هذا. قدماي تعبتا من حمل جسدي الذي غدا عليَّ أثقل من جبل، كم أشعر برغبةٍ جامحةٍ

بالاستلقاء الأبدي في هذا المكان دون مدّ خطوة أخرى، سأقع بلذة.

– أحذّرك أيها الرجل الأحمق، ستقع على الرصيف الناري وستحترق ثيابُك عليك بعد دقيقة واحدة.

– فقدتُ الأمل بمدّ خطوة أخرى, لا جدوى كل معنوياتي انهارت، الإنهاك يقضي على حواسي.

– يا راجيي ألم تنضج بعد، أي مفهوم خاطئ هذا الذي تتَّبعه في هذه اللحظة البائسة من عُمرك، هذا هو العَيش الحقيقي.. المُكافح الحقيقي في قلب الحياة هو أنت، المُكتشف للآلئ الحياة الذهبيَّة هو أنت.

كُن شُجاعاً يا راجي، كُن أكثر ثقة بك في نفسك وفي الحياة، كُن قوياً.

الأفعال العظيمة تحتاج إلى قوَّةٍ لرفعها، كما أن الأفعال المُنحطَّة تحتاج إلى ضعف لانحطاطها.

هل تريد الاستلقاء في مملكة ويأتيك ما تريد بالضغط على زر صغير من خنصرك لتكون مكافحا وتعيش الحياة؟!

الألم هو الذي يضخ القوَّة إلى عروقك، الحرمان، الجوع، الحاجة، الفاقة، المرض.

المرفَّهون ماذا بمقدورهم أن يُقدّموا للحياة، ماذا بمقدورهم أن يُقدّموا لأنفسهم, يخرجون من الحياة ومن نفوسهم دون أن يحظوا بشيء، إنهم المفلسون الحقيقيّون.

أنت الظافر يا راجي، هل ستتخلَّى عن حياتِك كلها وتركض خلف الشهوات: أحلامك، كبرياؤك، مبادؤك، لحظات الألم الكبرى، لحظات المجد الكبرى.

تذكَّر يا راجي الأطفال الصغار الذين يبتاعون حاجات لحظاتهم من أقرب حانوت صغير بأقل قطعة نقود قيمة.

السعادة الحقيقية التي تطرب لها الروح، لا يُدركها إلّا مَن بَلَغَ به الحزنُ أقصى مراحله، هناك فقط يستنشق شيئاً ينعشه لأول مرة.

الثراء الأكبر الذي لا يبلغه مخلوق، يكون في آخر خطوة من خطوات الفاقة، عندئذ عندما تغدو أفقر رجل على وجه الكرة

الأرضية، ستشعر بأنك أغنى رجل في الحياة، وسيحسدك أغنى رجل في العالم على ما توصَّلتَ إليه من ثراء.

الراحة العظمى تختبئ في آخر مفصل من مفاصل الإرهاق, عند ذاك، عندما قدماك ترميان جسدك إرهاقاً.

أبهى امرأة هي تلك التي تولد في الذاكرة، تلك التي تقبع في الذاكرة الأبدية، تلك هي أبهى امرأة على وجه الأرض، إنها تلبث قابعة تضيء لك ظلمات الروح.

الصحة العامرة تتسرَّب إليك في لحظاتٍ تخالها الأخيرة من عمرك وتلوّح بروحك للوجود، هناك في آخر رعشات الاحتضار لأول مرة تنفتح شهيَّتُك على الحياة وتُعانقها بعروقك، عندئذٍ فقط بمقدورك أن تعيش أسمى قيم الإنسان في حواسك، ولأول مرة ينتحر الشرُّ على وسادة روحك، لأوَّل مرَّة ينتصرُ الخيرُ وينهزمُ الشرَّ، لأوَّلِ مرَّةٍ تكونُ إنساناً نقيّاً وتتطهَّر من أي ازدواجية، عندئذ ستدرك لأوَّل مرة في تاريخ حافلتك أن روح الله تسكنك وأنك رائحة منه أنك صورة منه، عندئذ تقترب إليه وتناديه وتلمح الله لأوَّل مرَّة يُهرول إليك، وتلمحك تركض إليه.

في تلك اللحظات المُفعمة بالنورانية الجليلة والقداسة، ستُدرك لأوَّل مرَّةٍ معنى الإنسان فيك وستعقد على الإنسان آمالاً لم تخطر ببالك من قبل.

انظر يا راجي، إنني أُعلِّمكَ قِيَماً:

الشهوةُ إقبالٌ على الحياة

الشَبَعُ يغتالُ الشهوةَ

لا تقتل الحيويَّةَ فيك

الشهوةُ تمنح أكثر من الإشباع

مُعاناتُك هي حياتُك في هذا الدرك المظلم من الحياة، هي الذكريات الثريَّة الكُبرى التي ستأخذها معك عند الرحيل الأبدي.

ليكن مفهومُك للّه أوعى، أنضج، لا ترتكب حماقةً عُظمى بمفهوم مبتور. إحساسُك بالموت تمهيدٌ لموتك كاملاً، إحساسُك بالحيويَّة يُحطِّم احتمال أي موت.

ثق في لحظات الإنهاك المُدهشة هذه بأن الله دوماً على صواب، سر تِّجاه بيتك بثقة يا راجي، تقافز كما الأطفال الصغار الذين يتقافزون مع أمهاتهم يوم وقفة العيد، هيا يا راجي ابتسم من عمقك ليشرق وجهُكَ بنور الإنسان، هيا احلف برؤوس العصافير التي تُزقزق كل صباح على حائطك، هيا احلف لي بأنك لن ترتكب الحماقات مرة أخرى.

أنت أوعى يا راجي، لم يسبق لك أن صَفعتَ مخلوقاً في عمرك، لم تحقد على أحد، حتى في غرفتك عندما ترى حيواناً ضاراً، تتحايل عليه وتَحمله إلى الخارج.

في الشتاء تبحث له عن مكانٍ دافئٍ لا يصله مطر، كم مرة خرجت ساعات الليل لتضع نملةً أو صرصوراً في مكانٍ دافئٍ، لا تستطيع أن تقتل مخلوقاً أو تتسبَّب له بلحظة رعبٍ واحدة، تعتبرك مسؤولاً عن لحظةِ مطاردةٍ وخوفٍ واحدة تُسبّبها لهذا الحيوان الصغير الضعيف الذي لاذَ ببيتك جوعاً وبرداً لتحميه وتهتم به.

* * *

وصلت خطوات راجي عبد الكريم بن بدران بجسده أمام باب الحوش, وبمحاذاة الباب الذي يَليه لَمَحَ عجوزاً حنواء تُصوّب نظرةَ حنانٍ إليه، بادلها نظرةً سريعةً فقفز إلى مخيلته في لحظة وجه أمّه، ولم يلبث أن وجّه نَظَره إلى حزمة المفاتيح التي اعتاد أن يبقيها في كفّه طوال خروجه من البيت، ومع إدخال مفتاحٍ إلى الثقب، انفرج شقٌّ واحدٌ مِن الباب الحديدي الذي يكاد يأكله الصدأ.

دَلَفَ جَسَدُه بُسرعةٍ وأعاد قفل الباب من الداخل، بَيدَ أنَّه لبث في ريبٍ بأنَّه لم يدخل كاملاً، وأنه ترك جزءاً منه في الخارج.. مَضَتْ به خطواتُه إلى الغرفة، نَظَرَ في المرآة باستغراق، اشتهى أن يشرب ماءً بارداً وتذكَّرَ بأن قيمة البرَّاد تتجاوز عشرة آلاف ليرة، وتخيّل أن يشتري تلفزيوناً وما يلزمه من أدواتٍ منزليَّة، وأدرَكَ للتو بأنَّه– حتى لو كانَت نتيجة المسابقة إيجابيَّة– لن يتمكَّن من شراء ما يلزمه إلَّا بعد خمس سنوات عمل, وأدرَكَ أيضاً أن مُجرَّد التفكير بالزواج يحتاج إلى عشر سنوات أخرى من العمل بالإضافة إلى السنوات الخمس الأولى،

وهو الآن في الخامسة والعشرين، فيستطيع الزواج في سن الأربعين، ولو لم يكن وحيداً لأُلزِمَ للالتحاق بالخدمة العسكرية وأمضى سنتين ونصف، وربما عندئذٍ سيقترب من سن الخمسين حتى يهيئه وضعُه الاقتصادي من الزواج، وعندها سيكون محظوظاً فيما لو رأى أرملة لها خمسة أولاد وتماثله في السن.

في لحظاتٍ ما يجب أن يُفكّر المرءُ في مستقبله الشخصي وهذا من حَقِّه، وخَطَرَ لراجي أن هذه اللحظات هي الأنسب لتفكيرٍ خاصٍّ من هذا النوع, تذكّر فتاة في الربيع العشرين تملأ كل فراغات حياته، وتخيَّل التلفزيون والبراد ومكتبة جيدة لكتبه، وتخيَّل أن يحتوي هذا البيت على جهاز هاتف أرضي، وعصَّارة فواكه.

بدا له للوهلة الأولى بأنه أناني، لكنَّه تحدَّى هذا الشعور واستمرَّ في التخييل وهو ينظر إلى المرآة، هذا البيت كله سيأخذ شكلاً أفضل، هذا من حقِّه، من حقِّ أي إنسانٍ أن يُفكّر في تحسين وضعه الصحّي والمعيشي، هذه لَيسَتْ نرجسية، ولذلك

اتَّجه تفكيرُه إلى القرية وإلى حقٍّه من حصَّة أبيه في الأرض الزراعية التي بَقيَتْ في أيدي عمَّيه بكر، وعابد، بعد وفاة أخيهما بدران بالجلطة الدماغية منذ سنتين.

وبعد لحظات رفع نظره عن عمق المرآة وهو يريب مرة أخرى بأنه ترك جزءاً منه في المرآة.

تزحلَقَ الكِتابُ الذي يتأبَّطه ووقع على الأرض، برز نصفُ مظروف الرسالة، ولفتت نظره، وأزمع على قراءتها بعد الغداء.

خلع ثيابه، تعرّى تماماً وخرج إلى الحوش، وَلَجَ المرحاض، رفع الخرطوم إلى رأسه وفَتَحَ الحنفيَّة: أح.. أح.. أح.. ددد.. ح.. ح.. أنا بردان.

انتشرت نبرات صوته في سكون الحوش الصغير وظن أن نبرات هرولت نحو ثقب الحيوانات، وربما قَفَزَت إلى حوش جدّه.

خَرَجَ من المرحاض، وقف على قدمَيه تحت الشمس، ثم مالبث أن سَحَبَتْ كفّه كرسيّاً صغيراً تمَّ لفَّه من الأعلى بقنَّب، جلسَ عليه نحو ربع ساعة، وأحس بأن الشمس أنشفت جسده

فنهضَ ومضى إلى الغرفة، ارتدى جلباباً قديماً على عريه، أشعل المذياع الجيبي الصغير الذي يعمل ببطاريتَين اصبعيتَين كان قد اشتراه في الجامعة: مرة أخرى سأطبخ الرز، لا شيء غيره، هذه المرة لن أفشل في طبخه، سأعمل بما قالَته لي المرأة المتسوِّلة في الموقف، سأغلي إبريقاً من الماء وأسكب فيه الزَّيت والملح، وبعدها أخفت النار وأضع فيه نصف إبريق رز، وأدعه يتشرَّب الماء والزيت حتى ينضج، عندئذ سيكون جاهزاً لهذه المعدة التي تعتصرني جوعاً.

سأشبع وبعد قليلٍ من استرخاء سأقرأ الرسالة.

* * *

أعد راجي الوجبة البيضاء وقرفص على الأرض شارداً:

ها هو الإحساس المؤلم بالضياع يترك ذاكرتي وحواسي، هذا هو بيتي الذي لامكان لي غيره، كم هو رائع أن يملك المرءُ بيتاً في هذا العالم، أن يشعر بملكيَّته لهذا البيت، أن يُمارس فيه كل حرّيته دون أن يزعجه أحد.

كل عمري سيكون هنا، سأعيش بعيداً عن العالم، وعلي أن أنسى أمر المسابقة، الوظيفة ستأكل عمري، إنها مسألة فارغة، أمرٌ مقرفٌ أن تنفق كل حياتك من أجل إملاء معدتك. أنا أرفض هذا النمط من الحياة وسأفكّر بمصدرٍ آخر يسدّ جوعي، يكفي لقد درستُ سبع عشرة سنة، منها خمس سنوات في الجامعة وتخرَّجتُ مُهندِساً، أيُّ شيءٍ يعني لي هذا اللقب: "أنا مُهندس".

هل يعني هذا بأنني سأحصر كل اهتمامي بالهندسة؟! هناك ما هو أهم، هناك الحياة التي تنتظرني والتي ستهملني إن لم ألتحق بها مثلما أهمَلَتْ الملايين من قبلي، أفهم شيئاً واحداً الآن هو أنَّني لن أُلزم نفسي بوظيفة، الالتزام يعني الموت، يعني

الانطفاء، الالتزام يفسد فضاء الحرية علي حتى لو كانت معدتي مليئة.

أنا الآن أمارس الحياة بكل لحظاتها، لا أترك لحظة واحدة تفوتني دون أن أعيشها، وهذا التجنب من كافة القيود يمنحني الشعور الأعمق بالانطلاق في صحراء الحياة الشاسعة، والتحليق في فضاءاتها الرحيبة.

أنا الآن حرٌّ بكل ما أملك من مدركات، يا للحرّية إنها أثمن من الماء والهواء ورغيف الخبز، أستطيع أن أعيش بالحرّية وحدها، ياللحرّية البهية، صباحاً سأفطر كسرة حرّية ولن أجوع، الحرّية تُعلّمني أكثر مما يُعلّمني القَيد، أفهم في لحظات الحرّية هذه أن الحرّية لا تُفتّش عن أحد، إننا إذا أردنا ليس فقط نسعى إليها، بل نصنعها أيضاً، الحرّية تبقى كالشمس قد تغرب لكنها ما تلبث أن تشرق على ظلام الإنسان بكل أشعَّتها.

عندما أعجز عن ممارسة الحرّية الفعلية، يمكن أن أمارس الحرّية الفكرية، والحرّية الفكرية هي الإشارة الأولى لممارسة الحرّية العّمَليَّة.

العَيش المُنفتح في قلب المدينة يُتيح لي ما كان معرفته مستحيلاً بالنسبة لشخص يمضي عمره في قرية ما على هامش الرؤية الحقيقيَّة لِجَوهر الحياة.

أذكر الآن وهم يزرعون الشكوك في طريقي: أيُّ شَيءٍ يُمكن لهذا اليتيم أن يفعله سوى أن يكون راعياً فاشلاً في الحياة، المُصيبة أن بدران يُريد أن يبعثه إلى الجامعة!

يُحطّمون معنويات المرء هناك بفهمهم القاصر للحياة، كانوا يُراهنون على "جنوني" ولكن لم يأتِ الحَدَث الذي يَكشف النقاب عن هذه الحقيقة: كيف يا بدران تُغامر بإرساله إلى العاصِمة، ستأكله الفئران دون أن يشعر به أحد، وإن لم تأكله الفئران سيضيع في زحمة العاصمة.

حتى عمّي كان يُراهن على عدم استطاعتي في تحمّل المسؤوليَّة حتى أقنعَ أبي، ولكن أصررتُ على الجامعة مثلما أصررتُ على الثانوية، تعاركتُ مع أبي في ليالي الشتاء الطويلة.. أذكر هدَّدته بالذهاب إلى الجامعة دون موافقته حتى لو اضطررتُ أن أعمل وأدرس، ولن أدعه يراني طوال العمر، وإن

فشلتُ في ذلك، سأترك هذه القارة كلها وأعيش في قارةٍ أخرى. ويبدو أنه مال إلى شيء من اللين أمام إصراري.

لم أستسلم لذاك المصير الذي كان ينتظرني في تلك القرية، وفي أحسن الأحوال كان يمكن أن أكون نسخة مكررة عن أبي، لقد رسمتُ معالم مستقبلي وفق الطريقة التي رأيتها.

الآن أشعر بالحرّية، أقطف ثمرة ذاك الجهد وذاك العراك والإصرار، لم أبق راعياً فاشلاً على إحدى بيادر قريتي، هذه هي نتيجة جهودي، أجل لست رجلاً يائِساً في الحياة، ورغم قناعتي بهذا، فإن تربيتي السيِّئة التي تلقَّيتها في القرية، تعكس أحداثاً سلبية على حياتي الآن، وكأنها ترغمها علي دون أن أكون قادراً على كبح هيجانها، إنها تشعلني وتجعلني كتلة من نار، ثم بعد هُنيهاتٍ، كتلةً من ثلج.

إنني أفشل في مسعاي المتواصل للتخلّص من آثار تلك التربية السيِّئة التي تظهر على سلوكي بعض الأوقات، ولكن لن أيأس وسأكافح من أجل التغلّب على كل ما هو سلبي في حياتي، وسأتجرَّد من تربيتي القاسية، تلك التربية التي تحتل كل لحظة

من لحظات حياتي حتى هذه الساعة، تلك التربية السيِّئة التي كانت بذرتي بسبب جهل والدي لأصول التربية، لقد كان مربياً فاشلاً رغم كل ما أكنّه له من حب.

ليس بوسعي التجرّد من طفولتي، الطفولة أسمى مرحلة في حياة الإنسان، إنها اللبنات الأولى التي يلبث يقف عليها طوال حياته.

رفع راجي رأس الغطاء وألقى نظرة إلى الوجبة البيضاء الناصعة التي أخذت لون النضوج. تضاعفت شهيته، أخذ نصف ملعقة وتناولها، ثم أطفأ الغاز وملأ صحناً، لأول مرة بدت حبات الرز منفردة، ولايكون مثل العجين: شكراً لتلك المرأة المتسولة.

راجي الإبن البكر للسيد بدران وللسيدة سامية التي اضطرت للهرب مع السيد بدران الشاب الثلاثيني الذي يتردد للبيت الذي يلي بيتها في قلب المدينة وأرقى مساكنها في شهرَي تموز وآب من السنة, ففي شهر تموز يأتي لقبض فواتير محصول الأرض ويراجع الدوائر الزراعية بموجب الوكالة من أخوَيه بكر وعابد. وفي شهر آب يعمل في تجديد معاملة ترخيص زراعة

الأرض وما يترتب عليها من أجل البذار للسنة القادمة حتى يحصل من المصرف الزراعي على البذار والسماد والمبيدات.

منذ ثلاث سنوات اتفق مع أخوَيه على شراء هذا البيت الذي يقع في أرقى مساكن المدينة، ويحتوي على ثلاث غرف مشيدة من الإسمنت ومنافعها في أربعمائة متر مربع لوضع حد من إزعاجه لبعض المعارف والأقرباء الذين يقطنون المدينة وهو يرى علامات الفتور في استقبالهم له ويضطر أحياناً لأخذ هدايا وفاكهة ومنح أوراق نقدية بفئات عالية لأطفال هؤلاء حتى يستقبلوه بحفاوة أكثر ويبقى يردد في سره: ما دمتُ هنا فسأجعلهم يأكلون اللحم كل يوم بجلبي دجاجتَين إليهم يومياً عند عودتي في الظهيرة بعد أن تغلق الدوائر وينتهي الدوام, لأعتبر ذلك أجرة فندق.

وكان يختار البيوت التي فيها أكثر عدد من الرجال وأقل عدد من النساء، فهو يدرك بأنه عازب والإزعاج سيكون مضاعفاً عند البيوت التي تحتوي على بنات ولا تحتوي إلّا على رجل واحد.

في السنة الأولى من شرائه لهذا البيت لفتت نظره فتاة، ولايدري كيف قفزت فكرة الزواج إلى مخيلته، وراح يتخيلها زوجة له، وقبل أن يعود لم يتردد من أن يغمز لها بعد أن عرف بأنها جارته التي تسكن جواره ويفصل بينهما حائط واحد نصفه لبيتها ونصفه الآخر لبيته، هكذا قال له بائع البيت.

ابتسمت الفتاة وبادلته بغمزة من عينها فراح يسأل عنها طفلاً صغيراً عندما ناداه وأعطاه تفاحة فقال الطفل: سامية.. هذه سامية. وعرف عندئذ بأنها نصرانية.

عاد إلى القرية وهو يشرد بها ويتخيلها زوجة له.

ولكن في السنة الثالثة وفور حضوره إلى المدينة منتصف شهر تموز وعندما وقعت أنظاره عليها جمد في أرضه، وجمدت في أرضها وهما يتبادلان النظرات، أشار إليها أن تلحقه إلى الداخل فأومأت رأسها بالإيجاب. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف ظهراً، وبعد ساعة انتظار رآها تدخل من باب الحوش حاملةً بيدها صحن برغل عليه لحم غنم: لاتؤاخذني على التأخير، انتظرتهم حتى ناموا من شدة الحرارة.

تناول من يدها الصحن ووضعه على طربيزة صغيرة فقالت: لكن ما اسمك؟

قال: بدران

قالـت: هل صنعت لي سحراً يابدران؟

قال: لا، وأنت هل صنعتِ لي سحراً

قالت: سامية

أضاف: ياسامية

قالت: لا، وأردفَت: لم تغب عن فكري لحظة واحدة، قبل ثلاثة شهور جاء شخص يطلبني للزواج، قلت لأهلي بأنني غير موافقة، كنت على ثقة بأنك لابد أن تعود.

قال: منذ تلك النظرة ياسامية صرتُ أراك في وجه كل امرأة أنظر إليها.

أخذها بين ذراعَيه وغدت تلصق جسدها به وتضمه، تمددا على الأرض في شبه غيبوبة عما يحدث، ولما نهضا رأيا بقعة دم على البلاط في تلك الظهيرة الصائفة.

ودون أي تفكير مسبق اتفقا أن يخرج فتلحقه إلى الطريق العام، عندئذ قالت له: كل لقمة من هذا الطعام يابدران، فتناول لقمة وترك الصحن على الطربيزة، أقفل الباب، وأمسك بيدها كأنه لص سرق طفلة من أهلها وهم نيام. فتح شق الباب، ألقى نظرة إلى الشارع، ولم ير أحداً، طلب إليها أن تقف جوار باب بيتها حتى يخرج. أقفل الباب ومضى نحو الطريق العام وهو يلتفت ليراها تلحقه بخطوات حذرة، ركبا أول سيارة متجهة إلى القرية، وما إن وصلا البيت حتى اقترح عليه أخواه أن يختفيا عن الأنظار في قرية أخرى تحسباً لِما قد يقع.

بعد مرور ثلاثة شهور على غيابهما عن الأنظار عادا إلى بيتهما، وعندئذ اتجه خمسة رجال من كبار القرية إلى بيت والد السيدة سامية وأخبروه بأنهم جميعاً على استعداد لأي شيء يبتغيه، قالوا: هذه رقابنا وافعل بها ما تشاء دون أي ثمن مقابل أن تسامح ابنتك وابننا.

قال: لاأريد غير عودة ابنتي، لاشيء لي عندكم سوى ابنتي وحدها.

بعد حوار دام ساعتين استطاعوا أن يقنعوه بأنها أصبحت على ذمة رجل وأن أي قوة لا يمكن أن تعيدها حتى في أسوأ الاحتمالات.

قال الأب: ليس لدي غير الذي قلته لكم.

خرج الرجال بخُفَّي حُنَين ، بعد مرور شهر لجأت جماعة أخرى إلى الكنيسة وترجت القس ليتدخل بحسم هذه المسألة لأن دماء الناس ستتعرض للهدر، عند ها قال أصغر هؤلاء سناً: الأديان أتت من أجل نشر الحب في الناس ياسيدي. وقال أكبرهم سناً: الأديان جاءت لتردم الهوة بين الناس وليس العكس ياسيدي. ولكن الجماعة لم تصل إلى نتيجة مرضية ولبث الأمر مشتعلاً بين العائلتَين.

بعد ولادتي وولادة أختي "راجية" و "ريم" بدأت جدتي تزور أمي في القرية وتجلب معها خالاتي الصغيرات وبعض عماتي، وكان ذلك يجعل أمي في طمأنينة على حياتها الزوجية. أذكر أن أبي كان يذبح خروفاً كلما زارتنا نساء من طرف أمي، وأيضاً أذكر أن أمي لم تكن تصلي ولم تصم مع سكان القرية

وكانت تمارس عبادتها وتقرأ الإنجيل كل يوم أحد، كانت دوماً عندما تريد أن تقوم بفعل شيء تقول: ياعذرا. وكان الصليب الذهبي في سلسلةٍ ذهبية على صدرها دائماً، ذاك الصليب الذي جَلَبته معها من البيت، ولكنها في الشتاء كانت تسخّن الماء لأبي وتوقظه لصلاة الفجر، وأيضاً تجلس تشاركه طعام السحور في رمضان دون أن تصوم.

هذه هي أمي التي لا أتذكر غير تفاصيل صغيرة عن حياتها ولم يسبق أن زارها غير رجل واحد هو خالي "أيهم" الذي كان في الخامسة عشر من عمره آنذاك، هي زيارة وحيدة قام بها رجل من طرف أمي وليتها لم تكن، فعندما مات جدي لأمي جاءت جدتي حاملة رسالة من أخوالي الخمسة لأمي كي تتنازل لهم عن حصتها في الإرث لقاء صفحهم عنها، فردَّت أمي بحضور أبي وعمي أن أولادها فقراء وهم بحاجة أكثر من إخوانها.

بكت وهي تنظر في حدقتَي أمها التي حملتْ الرسالة وهي تقول بنبرة كلها بكاء: ماذا فعلتُ ليجردوني من كل شيء، ألستُ أختهم من نسل أبيهم وأمهم، وأولادي الصغار: راجي،

وريم، وراجية، أليسوا أَولى بما تركه لي أبي من شقائه في الدنيا، ألا نعرف نأكل ونلبس مثلهم؟ لماذا يخلطون الأوراق؟! فليتذكروا بأنني أختهم وأنني مشتاقة – كاليت الذي يشتاق إلى الحياة – لرؤية ذاك البيت مرة ثانية.

ونقلت جدتي كلام أمي إليهم ورفضها العنيد بالانسحاب من "حصر الإرث" الشرعي والقانوني، كانت أمي تعرف المبالغ التي تصيبها من الأراضي الزراعية والمحلات التجارية الثلاثة والنقود المودعة في المصرف وسيارة التاكسي الحديثة، وكلها مسجلة باسم والدها وهي تستطيع أن تصل إلى حصتها من الإرث عن طريق القانون.

بعد شهر عادت جدتي ولأول مرة تجلب معها أخاً لأمي كان "أيهم" فاحتفت القرية كلها بحضوره رغم صغر سنه فقد اعتبر جميع أقربائي أن ذلك بمثابة بداية لصلح نهائي وهو سيستجر بقية إخوانه وهكذا يمكن لأمي أن تفكر بزيارة أهلها ولو بسرعة خاطفة في منتصف ليلة شتائية .

مضى اليوم الأول على شاكلة أيام الأعراس، ذبح أبي إثني عشر خروفاً داعياً القرية كلها للطعام على مدار ثلاثة أيام، ولكن في اليوم الثاني عصراً والقرية تعيش ذروة عرسها وفرحها كان على خالي "أيهم" أن ينفّذ ما جاء به، ويبدو أنه كان قد تأخر عن تنفيذ المهمة، فطعن أمي بسكين في المطبخ.

يستطيع راجي تذكر ذلك اليوم ووقائعه، فقد هرع من بين الأطفال كالسهم الطائش تجاه البيت حينما سمع صوتاً طفولياً مجهولاً يهتف به: راجي.. قتلوا أمك!!

يتذكر كل خطوة خطاها، كان إذذاك في الخامسة من عمره، يتذكر أنها وعدته منذ ساعتين فقط أن تدخله المدرسة العام المقبل.

تلك الأم الرحيمة، هاهي مستلقية على الأرض مقتلولة بجانب بقعة دم.

أمي هديتي الوحيدة قتلوها دون أن يأخذوا رأيي أنا الذي كنت الخسران الأكبر لأن الأمر كان يعنيني أكثر من أي شخص آخر في العالم، لقد فُجعتُ بالقرار.

في لحظات السواد تلك تقدّم إليه أبوه الشاحب، سحبه برفق إلى غرفة وأعاد غلق الباب، هناك وقع على أختَيه راجية وريم تنشجان بصوتين كسيرين خافتين وترتعدان، انضم إليهما ، ألقى وجهه بين ركبتَيه تاركاً نحيبه يعلو وينتشر ويُسمع كل مَنْ في الحوش.

أمي المخلوقة الوحيدة التي كنت أغفو مطمئناً على ذراعَيها دون خوف من كلاب آخر الليل التي تختطف مَن لا أمهات لهم، أمي اللحن الجميل الذي لن أسمعه كل صباح بعد الآن، لكل مخلوق أم تهتم به، ترضعه، تقوم بتربيته، وأنا لا أم لي، لا أم لي، لقد قتلوها بدمٍ بارد دون أن يستشيروني، أمي التي لم تفعل شيئاً سوى أنها أنجبتني، لكل شيء ثمن وهذا هو ثمن إنجابي بالنسبة لي ولها، أمي العظيمة ماتت وفي قلبها حسرة على ألّا تموت بتلك الطريقة.

أنا أوافق على ما قامت به في السابق، أنا أقرب الناس إليها وهي أقربهم إليَّ، ليس بوسعي أن أسامح خالي مهما طال

بي العمر، ودوماً لن أراه غير وهو يحمل السكين ويطعن أخته في المطبخ.

– "راجي قتلوا أمك" أرعب عبارة سَمعْتها أذناي حتى الآن , أشعلتْ لهيباً لن ينطفئ في حواسي.

أنا الطفل الصغير الذي ما زالت رائحة حليبها تفوح مني، الطفل المفجوع بقتل أمه، الأم الصغيرة جداً، الطفلة جداً، كانت في الثالثة والعشرين، أنا الآن أكبرها بسنتَين، ماتت قبل أن تستمع إلى نشيد مدرسي واحد بصوت طفلها في الصف الأول الابتدائي.

أين راحت وتركتني يتيماً؟ كيف ماتت، هل بمقدور طعنة واحدة أن تلغي وجود إنسان بكامله أن تسحق أماً من الكرة الأرضية؟ لا أصدق، إنها مختبأة الآن وتراني، لا بد أنها تراني وتتّبع أخباري.

أمي الغالية التي لم تترك غير رسالة وحيدة يتيمة كانت قد وصلتها من توأمتها "مادلين" خالتي التي لم يسبق لي أن رأيتها حتى الآن لأنها على ما يبدو متزوجة في أمريكا.

كان هناك من يطلب أمي للزواج، وكانت تقدم لها النصح، , رسالة من أخت متأهلة إلى أخت عزباء، ياه كم قرأت هذه الرسالة حرفاً حرفاً إلى أن حفظت كل سطر فيها، و كم تمنيت في قراءات لو تزوجت أمي من ذاك الشاب "الماردلي" أو تزوجت أي شاب آخر غير أبي الذي كان السبب الأول في موتها.

لا أعرف في أي تاريخ كتبت هذه الرسالة لأنها خالية من تاريخ وتكتظ بالأخطاء اللغوية، يبدو أنها كتبتها كأنها تحكي في سماعة هاتف، إنها كلمات خالتي مادلين التي طالما رغبتُ فيما لو عثرتُ لها على عنوان لأرسل لها رسالة نيابة عن أمي ,ولطلبتُ أن ترسل لي صورة لها، ولسعيتُ ما بوسعي لرؤيتها مهما كلفني ذلك من ثمن، لأنها لابد أن تكون قريبة الشبه من أمي، أو لعلها تشعر نحوي ببعض الأمومة لأنني رائحة من توأمتها. :

"أختي الغالية سامية حالياً أنا بألف خير على ما أظن والجميع يعرف بحملي في الشهر السادس، لكن كل من يشوفني يتوقع إني حامل بالشهر الرابع وكل ثالث يوم من بداية الشهر

أكمل شهراً وهكذا يمكن أن أضع في اليوم الثالث من شهر كانون الأول الآتي. شوفي أي يوم مبهدل، أي وقت زفت في عز البرد ويكون عندنا في أمريكا الثلج نص متر. الآن أخبرك كيف بدأ حملي، قال لي الدكتور هنا بأنني إذا أريد حبوب منع الحمل أم لا فقلت: لا أريد.

لأنها ربما سوف تسبّب لي بعض المشاكل في المستقبل، فقال: هنا في أمريكا يختلف الوضع، لأننا سوف نأخذ القليل من إفرازات الرحم ونعطيك حبوباً بموجب الرحم.

وبقيت أفكر بالموضوع يا أختي وعندما نويت على الحبوب أخبرت الدكتور بنيتي فقال: تعالي عندما تأتي الدورة الشهرية. وبقيت أنتظر الخانم "الدورة الشهرية" ما بعرف ليش تأخرت على غير طبيعتها وسجلت على دور في العيادة، ولما جاء دوري كان مضى شهر ونصف على هذه الشغلة وعرفت بأن الدورة راحت ما بحلم فيها وأني حامل، يومها يا سامية فكرت أن أروّح الطفل ودانيال قال لي: أنت حرة، و الحكيم قال: فكري كويس وقرري لا تسألي حدا، فكري بالأمر وقولي إذا تريدين أن

تجهضي الطفل فيجب أن تكوني مستعدة بأسرع وقت لأن الجنين كلما يكون صغيراً يكون الاجهاض أسهل.

ولبين ما تفكر الخانم "مادلين" أكمل الطفل شهرين، بعدها شعرت بجريمة ترويح طفلي خصوصاً بعد أن زرت عيادة دكتور الإجهاض وشفت النساء كيف يصرخن من الألم خاصة في إجهاض الطفل الأول. قلت: لن أجهض، وأربيه في بطني، ولو تعرفي يا سامية يا توأمتي على إيش كنت مشتهية رح تضحكي، كنت مشتهية خيار، إي خيار سوري، بعرف راح تقولين ليش ما في بأمريكا خيار. عندنا خيار لكنه كبير جداً وطعمه مختلف وكل الخضروات طعمها مختلف لكن تعودت عليها ما عدا الخيار. المهم حملي لا يتعبني وأظنه أريح من حمل كل النساء اللواتي رأيتهن.

سامية ربما لا تشعرين بشيء عندما أقول: "سورية" لكن وأنا هنا أشعر بأنني أنا سورية، عندما أسمع أسمها في التلفزيون أحس بأنه يعنيني، حتى أنني أسمع عبارة /مادلين السورية/ في بعض الأماكن التي أتردد إليها.

طبعاً لا أعرف بالتأكيد إذا كان الجنين ولداً أم بنتاً لكنني أريد بنتاً. أما بالنسبة لأخبار دراستي صرتُ أحكي بسرعة وأفهم ما أسمع من كلام، وأتسوق لوحدي وأشتري الثياب والخضار وكل ما أريد بدون أحد ومعي سيارتي، بس لو تعرفين كم أكره لونها إنه بيج على ذهبي وهنا الأمريكان يحبون هذا اللون كثيراً لأنه يتحمل الوسخ ويوفر عليهم الغسيل. أما الفصل القادم للدراسة يبدأ بعد شهرين، سجلتُ على درس رياضيات سهل علي، المغزى منه لأتعلم الكلمات والعبارات في الحساب. وهذا الصف مع أمريكان ليس مع أجانب وهذا يساعد أيضاً في سرعة الاستيعاب، ودرس آخر طباعة على الكمبيوتر وهذا بسيط أيضاً، ودرس قراءة أيضاً مع أمريكان ما عدا درس قواعد إنكليزي مع أجانب. وسألغي كل الدروس قبل 3 كانون الأول عندما ألد.

شوفي يا سامية يا توأمتي كنتِ قلتِ لي في التليفون عن الشباب الذين يتقدمون لك، وهذا الكلام ماتكفيه مكالمة تليفون، لا تنزعجي ياتوأمتي أذا قلت لا يناسبك أحد منهم وأنا حكيت مع زوجي دانيال في هذه المسألة، أما داهود، لا يا حبيبتي وألف

لا، إنه "ميردلي" وصائغ وصغير عمره 21 سنة على علمي ويمكن أصغر. معه حق عمي "ميخا" برفضه لأنه أيضاً صائغ ويعرف الشباب الصياغ في الحسكة أكثر منكِ. أولاً: هل تقدّم هذا الشاب رسمياً لك؟

ثانياً: إنه ميردلي وأول شيء سوف تكونين مكروهة من أهله ولا يسمحوا له أن يتزوجك، وإذا تحداهم يطردونه من البيت ويحرمونه من الإرث ويبقى مفلساً وتكوني جائعة معه طوال حياتكِ.

ثالثاً: إنه صائغ ويقول لحاله: بدي أتسلى بها ولما أشوف البنت الميردلية اللي على كيفي سأتزوجها. وعلى هذا الموال ستكون سمعتكِ طلعت معه، ويكون سوقكِ انكسر. لا تنزعجي يا حبيبتي من كلامي لأني أخاف على مصلحتك. فكّري في مستقبلكِ , أنتِ الآن في أحلى وأجمل فترة من عمرك، يمكن أن تتزوجي واحد كويس يعني بصراحة يا أختي السنوات تمر على البنت بسرعة، وبعد سنتين إذا ما تزوجتِ راحت عليكِ، وبكرة راح تقولين توأمتي مادلين قالت، لأن البنت من 16 إلى 19 إلى

20 سنة وبس وبعد هيك تروح للهامش إلّا إذا كانت مخطوبة، لأن البنات يكبرن بسرعة وما أن تتجاوز هذه السنوات الذهبية حتى تحتلها غيرها. وأنتِ أيضاً الآن داهود يقول بأنه يحبك، لكنه يتسلى إلى أن يصير في الخامسة والعشرين وتتجاوزين العشرين فيرى واحدة صغيرة ويفوتكِ القطار . هو لن يتزوجك لأن أهله لا يقبلون، ومو مجنون حتى يضحي بالسيارة اللي يركبها وبنصيبه من المال والسيارة حتى يعيش كرمال عينيك مفلساً في بيت للأجرة ويعمل أجيراً أو عتالاً، هل تفهميننني يا سامية؟

الحاصلة، لا تزعلي إذا قلت لدانيال لأن هو أيضاً يحبكِ مثل أخواته، ويهمه مستقبلكِ كثيراً وأنا سألته لأنه ناضج، وهو يهدي سلامه من هنا لكِ ولكل الأقرباء ولأبي وأمي وإخواني وأخواتي وبنات وأولاد الخال حنا والعم صومي وللجد والميمة وفي الرسالة القادمة سأرسل لكم صوري بالحمل.

توأمتك التي لاتنساك مادلين .

سامية أكتب لك الآن بالرصاص، لا مانع عندي أن تعطي الرسالة لأهل البيت أو تخبريهم بهذه الرسالة الخاصة والشخصية

غير رسالتهم العامة، طبعاً وإذا فعلتِ هذا يمكن أن تمحي هذه الملاحظة بالمحاة.

المحبة لك دائما مادلين".

لم ينته كل شيء سأحتضنها مرة أخرى لا بد أن هذا سيحدث ذات يوم، سيكون مفهومي لكلمة "موت" أنضج من أي وقت سابق، سيكون أوعى من المفهوم السائد، سامية.. تلك الأم الرحيمة هل فقدتها للأبد؟

* * *

أحس بامتلاء معدته، أدرك للتو بأنه يتناول وجبة الغداء، وأدرك أيضاً بأنه كان قد نسي بأنه يتناول الطعام، نهض كمن كان مستغرقاً في نوم عميق، رفع ما تبقى من طعام للعشاء، أعاد كل

شيء إلى مكانه فوقعت منه نظرة على نصف الرسالة البارز من جوف الكتاب، تذكر لحظة دخوله إلى مكتب مدير مبنى البريد في العاصمة وبيده عريضة يطلب فيها نقل اشتراكه في العلب البريدية إلى مدينته لسبب تخرجه، تذكر أن المدير كتب في أسفل العريضة: موافق أصولاً في حال توفر علب شاغرة.

لدى عودته جاء إلى مبنى البريد وأعطوه صندوقاً بديلاً عن صندوق العاصمة. ثمة رسائل كثيرة من أصدقاء وصديقات الجامعة ستدخل هذه العلبة، هذه العلبة التي ستكون صلة وصل يتيمة بينه وبينهم.

إي يا راجي داهمتك الذكريات بغتةً، لا عزاء للإنسان الذي يذهب عمره أمام نظره غير أن يتذكر الأحداث التي تُحال بين لحظة وأخرى إلى ذكريات وتنضم إلى إرث الماضي، كل لحظة تحيل أختها إلى ماض، كم من السنوات عشت، أيام الطفولة، سنوات المراهقة، الشباب.

ليس لك أي رصيد حقيقي في الحياة غير ذكرياتك، الذكريات وحدها التي تبقى خالدة لاتتعرض للنسيان, ذكرياتك في

حياتك هي ذكريات البؤس والشقاء والحساسية التي تكاد تقضي عليك، هذه هي كتبك التي جلبتها معك من العاصمة، إنها تحمل قبسات الماضي، انهض يا راجي وأعد قراءتها حرفاً حرفاً، اقرأ وسترى بأن قراءاتك السابقة كانت محاولات فاشلة للتهرب من واقعك، سترى بأنك لم تكن راضياً عن الواقع ولا لحظة واحدة، هذه الكتب كانت تملأ فراغك، وتأخذك إلى أماكن أقل قسوة من واقعك.

نظر إلى المظروف وقرأ: المرسلة كلناز.

أي كلناز يا راجي، أتذكر هذا الاسم؟

أغمَضَ عينَيه وراح يشرد: في الجامعة، في العاصمة، في أي مكان آخر، هل تذكر امرأة اسمها كلناز ؟

فتح عينَيه مُجدَّداً وقلّبَ المظروف، قرأ رقم علبته: إنها لك يا راجي.. تذكّر جيداَ.. تذكّر في مكان ما..؟

فضَّ المظروف وكأنه يلقي ضوءاً في ركن مظلم ليستطلع مافيه, تذكَّر كيف أنه سحب المظروف من العلبة المظلمة، والآن يسحب الرسالة من المظروف المظلم، وبعد قليل سيسحب السطور

من ظلمة الصفحة، ثم يسحب السطور غير المكتوبة من بين ظلمة السطور: "إلى عبد الله.. وقعتُ على عنوانك.. إذا أردتَ أن أكون صديقتك، أرسل لي على عنواني التالي".

إنها من نفس المدينة، وقد تكون من نفس الحي ولا يبعد صندوقها عن صندوقك أكثر من ثلاث خطوات، هل سبق أن أعطيتَ رقم بريدك لأحدٍ فأراد أن يمازحك ياراجي؟ أتعتقد أن يكون هناك خطأ في طباعة إحدى الأرقام ممَّا أدّى أن تدخل الرسالة صندوقك؟

وتمتم مُحدِّثاً نفسه: قد يكون هذا الصندوق لشخصٍ آخر، سلموه إليَّ لأنه لم يُسدِّد اشتراكاته.

إذن مَن هو عبد الله، ومَن هي كلناز؟

لا يهمك ياراجي سواء عرفت أم لا، تحدث آلاف الأخطاء حتى في طباعة الكتب الراقية، عامل مطبعة كان على ثمل ووضع رقم (2) بدل (3) فتغيَّر الرقم كله.

استرخى على جنبه الأيسر، أسند صدغه بباطن كفه وكأن الرأس كلها استلقت في ملاذ حضن الكف وتداعت عيناه، خطتا

كل الجدران والمسافات والحواجز إلى العاصمة، سَحَبَتا الطريق واختصرتاه إلى العاصمة: "شيرين" الطعنة الباقية في القلب، ثلاث سنوات حافلة.. كانت شيرين أجمل امرأة في العالم بالنسبة إليه، تذكر كلماته الأولى التي قالها وهما يجلسان تحت شجرة على إحدى أرصفة الجامعة: شيرين.. لم أشعر بما أشعره نحوكِ تجاه مخلوق، أنا أكثر مِن أُحبُّكِ.. ما لديَّ هو أكبرُ من الحب.

وبعد أيام متنت العلاقة بينهما: شيرين.. أرجوك عندما نلتقي لا تمدّي يدكِ إلى يدي..

وحدَّقَت فيه: إلى هذا الحدّ ياراجي.

– علاقتنا تبقى روحية,عفيفة,تزداد قدسية.. شيرين صحيح أنتِ امرأة لكنكِ بالنسبة لي تختلفين عن أي أنثى.

– ألن تطلبني بعد أن تتخرج؟

– هذا السؤال يُدمّرني.. شيرين.. لن أتصوَّر في يومٍ من الأيام أن علاقتي بك ستنحطّ إلى علاقة جسدية.. هناك مئات المومسات.. العاهرات.. القوادات.. أُفضِّل اللجوء إلى أي ماخورٍ على أن تسقطي.

ربما سنتزوَّج.. شيرين المقدسة.. شيرين نبض القلب الضعيف، لكن أمام الناس فقط. حتى يَدَعونا بأمانٍ في بيتنا.. ياه "بيتنا" شيرين.. وهذا الاسم لماذا يكون حلواً هكذا.. شيرين.. أنا أُحبُّك.. سأرفع صوتي.. سأملأ العالم باسمكِ.. سأكتب اسمكِ على كل مقاعد الحافلات.. على كل الجدران.. في كل المدن التي أزورها.. أكتبه على دفاتري وكتبي وأقلامي.. وثيابي.. شيرين.. أنت العروق.

وفي السنة الأخيرة ليلة رأس السنة اتفقا على السهر حتى الصباح في غرفته، وحِرصاً منه على شيرين لم يجلب أي نوع من الخمور، وسهرا حتى منتصف الليل.

عند ذاك انطفأ الضوء وبعد دقيقة اشتعل ثانيةً وامتلأ الكونُ بالضجيج.

نهضت شيرين إلى وسط الغرفة وبدأت ترقص على صوت الصخب الذي يملأ الكون، وبينما هي ترقص، عرقت فخلعت بعض ثيابها ولبثت بفستان النوم ولفَّت محرمة على أعلى ساقَيها وواصلت الرقص.

لم يتمالك نفسه فمدَّ يده إلى ساقها، نظرتْ في عينيه، أحس بجسده كله يمتلئ شهوة. ونهض إليها، ارتمت في حضنه وقعت بفمها في فمه واستلقيا على الأرض عاريَين.

همس: كيف سيحدث ذلك؟

قالت: لا أعرف أحذر أنا عذراء

قال: لكنني سأصاب بجلطة إن لم أفعلها سأنفجر شهوة.

قالت: أنا خائفة من عدوانيتك في الجنس

قال: لستُ عدوانياً ولكن شهوة السنوات المكبوتة تدفقت دفعة واحدة عندما رقصتِ وعندما لمحتُ ساقَيكِ.

وأدار ظهرها إليه هامساً: سأفعلها هكذا لن تقوم القيامة. واستجابت شيرين لرغبته، وعندما انتهى مدَّ يده إلى رأسِها ولم تدر وجهها إليه، وبعد نصف ساعة حاول مرة أخرى ولم تدر وجهها.

قال: شيرين ما بكِ؟

قالت وهي تخفي وجهها بكفَّيها: بأي عيون سننظر إلى وجهَينا، لوَّثنا أسمى علاقة كانت بيننا، حطَّمنا كل شيء.

قال: هذه ليست جريمة، كل النساء والرجال يفعلونها في كل عواصم ومدن العالم.

قالت: لا تُبرّر فعلتنا أرجوك كفى اصمت لا أستطيع أن أسمع صوتك، ياه هل تتصوَّر بأنَّني قادرة على النظر في وجهك وكأن شيئاً لم يحدث.

هاهي أيها الرجل مياهُك تجف، عاصفتُك تهدأ والسكون يركن إلى عضلاتك، لكن ذلك لا ينفي ما فَعَلته العاصفة وخلَّفته من خراب.

ماتت أشجاري، ذبلت ورودي، انطفأت مصابيحي، كل ذرة فيَّ تخفض رأسها لسقوطي وتنهار آخر صخرة من صخور ذاك الجبل الشامخ الذي كنته.

وأدرك راجي المستلقي على جنبه الأيمن حجم المأساة في تلك اللحظات التي بدت كئيبة ومؤلمة.

جاء صوتُها الحزين: ربما لم أكن كئيبة لو فقدتُ أمي الغالية، لو فقدتُ نظري وقدمي في حادث، هل تستطيع أن تُعيد

لي ما أخذته يا راجي، أشعر بأنني لوَّثتُ العالم كله، أي شقاء هذا الذي يحتلني.

وقال راجي مخاطباً نفسه بسر: ولكن ما الذي كان بيدي، كنتُ حيواناً.

إي يا راجي المرأة الجميلة ليست كغيرها من النساء، لها قدسية، لها حدودها التي لا يقربها أحد.

شيرين ليست كغيرها، وردة تتفتَّح للتو، ترى الأشياء الجميلة وحدها، تُحبُّ الحياة والدراسة والكفاح وتُخطّط لمستقبل.. لنجاح.. وهاأنت تُدمرها، تُحطِّم أحلامها، تُحيلها إلى زانية، هاهي شيرين المسكينة تكتشف غدرك وخيانتك ولا تطيق النظر في حقيقتك التي ظَهَرتْ الآن.

أنت وغدٌ يا راجي، امرأة بحجم جمال شيرين تدخل حياتك، كُنتَ تقول: لا توجد امرأة ترتقي إلى مستوى هذا الجمال.

كل الطلاب يحلمون بنظرةٍ سريعةٍ إليها، شيرين سَحَرَتْ كل مَن في الجامعة، تركتْ الكل وأمنتْ إليك، إلى كلامك عن

الإخلاص والاحترام والحب الكبير، لم تعرف بأنك ستنقلب هكذا وتغتصبها وهي ضيفتك في بيتك: المرأة الجميلة مثلكِ يا شيرين يكفيها أنها تُلهم الحب الكبير، تُفجّر المشاعر الإنسانيَّة، تَغسل القلب، تُطهر الروح، أنت بقعة ضوء في عالم من الظلمات.

لماذا لا تدعني ألتقيكَ بعيداً عن الجامعة؟

أين؟

في بيتكَ.. ألم تقل بأنك مستأجر غرفة.

أنتِ جميلة يا شيرين إلى حدود الرعب، والمرأة الجميلة تبقى بهية وهي بعيدة، لقاءاتنا الخاطفة هنا تزيد الشوق وتضرم الحريق في الحواس.

شيرين أنتِ الكنز، ألا تكفي كل هذه النظرات الفائضة في وجهك، ألا يكفي كل هذا الصوت السخي يصعد إلى ذاكرتي، شيرين هكذا تبقين عظيمة عندما لا نلتقي كثيراً، أو لا نلتقي أبداً.

أجل يا راجي لقد مات كل شيء، أي شيطان أودى بها إلى غرفتك، أي شر وسوس لك، كيف ستنظر في وجهها الآن وأي

كلام ستقوله لها، وبأي صوت ستتحدث، شيرين ذاك العالم الكبير هاهي تحتضر عارية في فرشتك.

وتحرَّكت شيرين، فنظر إليها بعفوية، لَمَحَ الضوء يدخل الغرفة من خلف النافذة، ولكن صوتها الخافت جاء: أرجوك لا تنظر إلي حتى أرتدي ثيابي. غطَّى وجهه باللحاف. وبعد قليل سمع صوت الباب، فرفع اللحاف ولم ير غير يدها خارجة، هَتَف: شيرين.. وخَرَجَ خلفها بثياب النوم.

كان الشارعُ خالياً من حركة الناس، وهي تُهرول وما تزال تخفي وجهها بكفَّيها، مالت إلى الطريق وأدى ذلك إلى ميلان بعض السيارات القادمة!

أطلق صيحةً وهو ينظر حوله ويتأمَّلها بين السيارات مُغطِّيةً وجهها، وقبل مفترق الطريق، دارت سيارة أجرة مسرعة وفي لحظات كانت شيرين مستلقية وسط الطريق والدماء تنزف منها.

عندما استيقظت في اليوم الثاني رأت نفسها على سريرٍ في المشفى، عندئذ طلبت ورقة وقلماً من الطبيب ورغم جروحها استطاعت أن تكتب عبارة: "أرجوكم لا تتركوا وجي دون غطاء".

وفقدت حياتها في صبحية اليوم الثالث إثر نزيف داخلي عنيف.

* * *

هاهو راجي يشبه المتقاعدين إنه متقاعد تماماً درس خمس سنوات وتخرج من الجامعة ليتقاعد لو كان يعرف ذلك لما قال يومئذ: "تخرجت" لقال: "تقاعدت".

تمضي الأيام وكل أسبوع يخرج يتجول في السوق من الصباح وحتى العصر ويعود فارغاً، يلجأ إلى القرية كل شهرين يلبث يومين في بيت أحد عميه يجلب مصروفه ويعود، يجلب نقطة من كوب، هذه الأرض التي تدر ذهباً ما زالت مسجلة باسم الورثة:

بدران، وبكر، وعابد، ويلملم ذهبها بكر، وعابد، بعد موت بدران وحصته تبقى لابنه راجي فقط، ماذا سيفعل بالأرض لو أقام دعوى قضائية وحصل على حصته؟ سيعيش في قصر.. وسيشتري سيارة بمجرد أن يؤجّر هذه المساحة لثلاث سنوات فقط لأحد المزارعين، لا أن يبيعها. ألا يحق لك أن تتمتع بالحياة يا راجي هل تعد ذلك خيانة، إنك لا تسرق شيئاً، لماذا تتهرب من الرفاهية، هل هي خيانة بمفهومك حتى إذا أتتك من طريق مشروع.. من أبيك الذي أنجبك، ولماذا لا تجرب حياة المشعوذين لبضعة أشهر فقط أو لسنتين.. عليك أن تجرب يا راجي التجربة الذاتية تعلّمك أكثر من قراءات العالم.. أليست كل هذه القراءات هي نتيجة تجارب مبدعيها.. حتى تستطيع أن تتحسس الخطايا وتتحدث عنها بصواب عليك أن تكون قد غرقت في ينابيعها.. عندئذ بمقدورك الحديث عن خطاياك، بمقدورك استيعابها بصورة أبهى.

ستتخلى يا راجي عن حياتك ستضع تفكيرك تحت وسادتك أجل يا راجي وستسعى إلى بيع الأرض وستفكر بشراء

بيت كبير تحوّله إلى بيت للعزلة وقبل أن تموت بلحظات ستوصي أن تُدفن فيه.

يا راجي.. لماذا لا تدخن..؟ ثمة أشياء كثيرة عليك أن تقوم بها.. وتذّكر في كل لحظة "زاهية" التي تنهض منتصف الليل وتقذف الحصى على بابك من أعلى الحائط الذي يفصل بينكما.. زاهية التي قذفتْ لك رسالة قالت فيها: "منذ سنتين تزوجت.. لي ابنة واحدة.. مللتُ النوم مع زوجي.. هل ستقفز من الحائط وتخطفني منه إنه نائم هذه اللحظة" وتذّكر.. الآخرون يخافون الموت وأنت تخاف الحياة يا راجي.. هيا.. افعل شيئاً.. غداً ستنام إلى الأبد في ظلام قبر مهجور.. كل شيء يتغير الإنسان يتلاءم مع التغيير ويخضع له.. حتى لا يبقى باهتاً مملاً..يوجه هذا التغيير حتى لا يكون ميتاً.. وأنت عشت كل لحظة.. كل ساعة.. لم يفتلُ يوم واحد لم تعشه.. كانت سنوات عمرك حافلة بالاخفاقات والطعنات.. والمشاهدات..

استمعت إلى مجموعة مذهلة من الأغنيات.. شاهدت أحلاماً ليس بوسع ذاكرتك حفظها.. قرأت.. استمعت إلى آلاف نشرات

الأنباء.. شاهدت عشرات الآلاف من الوجوه.. تحدثت مع آلاف الأشخاص.. مشيت مئات الكيلو مترات على قدميك.. لم تمر السنوات هباءً.. كم مرة غسلت وجهك.. حلقت ذقنك.. ارتديت ثيابك.. أكلت.. جعت.. شبعت.. ضحكت.. بكيت.. كم مرة.. ومرة.. ومرة.. أحسست بدفء العيش وأنت تصر على الحياة.. لا تدع ولا لحظة واحدة تهرب.. تتشبث بشعرها.. ولا تتركها إلّا بعد أن تعتصرها.. ولا تتخلص الساعة منك إلا منهكة جائعة، متقطعة الأنفاس.. الوقت فيك يحركك وتحركه.. هذا هو الوقت يا راجي وهذا هو المكان.

وهاأنت تكبر يا راجي.. وما أجمل أن تكبر.. لكل سنة تفكيرها.. ومشاعرها.. ومفهومك تجاهها.. كل سنة تأتي أنضج من غيرها.. انظر خلفك.. سترى ماضيك القاسي.. هل ستحتمل مثلما كنت.. ألن يغيرك الحرمان.. قالوا: "راجي كبر.. وسيدخل الجامعة.. كبر دون أن يدري به أحد.. ابن بدران".

وعرفت أنه لم يعد لك مستقبل في القرية.. مستقبلك في الجامعة.. في العاصمة التي ستراها لأوَّل مرَّةٍ في حياتك.. كانت

الإشارة الأولى للتغيير.. ورضخت لها استجبت.. وتركت قبر أمك لأوَّل مرَّةٍ.. الأم الماضي.. الأم الطفولة.. الأم التربية.. كان عليها أن تموت لتولد أنت مثلما تولد الدقيقة من موت الثانية.. وتولد الساعة من موت الدقيقة.. ويولد اليوم من موت الساعة.. وتولد السنة الجديدة من موت /8760/ساعة.

لقد ولدت المرحلة الجامعية من موت الثانوية وهاهي تسير في جنازتها.. وهاهي العاصمة تولد من موت القرية.. وهاهو أبوك يشجعك على السير في الجنازة الكبرى على طريق الولادة.. "راجي.. ابني.. لا تخف سأرسل لك نقوداً، سأستدين سأزورك في العاصمة، مستقبلك هناك".

هذا الأب الذي سيكتب لك بعد سنتين: "راجي.. أرى موتي قريباً مني.. عش أنت.. وعندما تتخرج بع الأرض واسكن في المدينة.. هناك في البيت الذي اشتريته لك ذات يوم لقد مات أبوك.. وماتت أمك يا راجي.. عش أنت وانجب أطفالاً يشبهونني وطفلات يشبهن أمك".

أبوك الذي استطاع أن يمضي عشرين سنة دون امرأة الذي لم يضجر من زرع الورود على قبر أمك المقتولة في تلك الأرض الأريضة.

عشرين سنة.. ذاك القبر الذي يستريح في أطهر ركن من أركان الحوش تحت فيء دالية العنب تودع كل شيء.. حتى لحظات الطفولة راجية وريم تودع طفولتك فيهما.. تودعان طفولتهما فيك.. تبكيان على أخيهما الوحيد في هذا العالم.. كلما تتذكر أختيك تستيقظ أمك من نومها الأبدي للحظات.. وتعانقك.. تخاف عليك من لصوص آخر الليل.. تخاف عليك "منك" من الجدران.. من العتمة .

راجيي.. هناك ستعيشني للحظات فقط يمكن لها أن تعيد إلي قليلاً من الهواء.. هناك يا راجيي.. تذّكر وأنت تمدّ إليه الخطوة الأولى.. مع استدارة قبضة الباب الأولى.. تذّكر في لحظاتٍ بصمات قبضة أبيك.. هناك في المكان الذي تمنيت طوال عمري أن أعيش فيه ليوم واحد أن استرد الذكرى.. في المكان الذي عشتُ طوال عمري مطروداً منه.. هناك قبّلتُ أمك.. ووضعتُ في رحمها

حيواناً صغيراً.. كان ذاك الحيوان الصغير اللا مرئي هو "أنت" تذّكر يا راجيي عهدنا القديم الذي عهدناه : سأكون لكَ إلى الأبد لن يمسني رجل غيرك .

ستحيي كل لحظة ميتة.. أنت ثمرة ذاك العهد القديم الذي عهدناه ذات ظهيرة خلسة.. المرأة.. المرأة يا رجيي.. أنت لن تعيش إلاّ من خلال المرأة.. حتى ولو كانت هذه المرأة وهماً.. ستعيش سعيداً في الوهم.. وفي حالتك لا فرق بين الوهم والحقيقة.. أنا أبوح لك بتجربتي.. أبوح لك وحدك بما لا يمكن لي أن أبوح به لغيرك.. أنت الذاهب إلى ذاك المكان الخالد الأشد خصوصية وسرية بالنسبة لي.

هذا ما استخلصه الآن بعد خمس وخمسين سنة من الحياة . المرأة يا ولدي الصغير مَنْ لا يؤمن بوجودها، يعيش مطروداً من الحياة إلى الأبد، يمضي حياته خارجها واقفاً على الباب المقفول من الداخل .

هاهو الباب الذي أكله الصدأ ينفتح لأول مرة منذ خمس وعشرين سنة.. هاهي الجدران التي شهدت نطاف تأسيسك.. هنا

كانت تتهرب منه.. وكان يلاحقها بقضيبه المنتصب: انظر.. انظر.. أليست أمك هذه التي تهبط من أعلى السطح. وقف راجي على قدميه.. وتقدّمت إليه أمه التي لم تكبر.. أمه التي هي أصغر منه بثلاث سنوات: "راجيي.. كنزي.. ثمرة تمردي الأبدي وموتي.. لستُ قادرة على نسيانك يا نبعي". هذه هي اللحظات المذهلة التي لا تموت في الإنسان حتى بعد موته بملايين السنين.. هذه لحظات إلهية مباركة تغفو لكنها لا تموت تستيقظ تلقائياً وتيقظ الحياة في الإنسان.. الإنسان "الامتداد" هاهي الذكرى تهزّ شجرة الموت وتولّد الحياة.. هاهي الولادة الحقيقية تظهر في هذا المكان تستيقظ.. وتيقظ كل ذرة حياة فيك.. تهز عمقك.. وتبشرك بانهيار أودية العزلة والرعب.. الحياة لا تتوقف يا راجي حتى لو اضطرتْ إلى إعادة نفسها من جديد.. من بدء الإنسان الأول بشكله البدائي، هنا ستمضي حياتك المقبلة.. ومن خلف الجدار ستفوح رائحة أمك التي أمضت ذات طفولة طفولتها وسنوات مراهقتها وطيشها.

في لحظات واقعة يمكن أن يحدث ما يراه الإنسان معجزة.. في لحظات فقط.. لا يمكن لها أن تتكرر في ذات الزمان والمكان ولذات الهدف ولشخص واحد. نفحات الحياة المباركة التي تقتلعك من اليأس والهوة، عليك أن تدرك الواقع لتثبت بأنك تعيشه، وهذا البيت الذي يليك إنه في الواقع بيت "جدك" تقبع فيه عجوز هي "جدتك" المرأة التي أنجبت المرأة التي أنجبتك، وفيه رجل ذات يوم اغتال أخته هو في الواقع "خالك" وفيه فتيات هن "خالاتك" دمهن يجري في عروقك شاركن أمك طفولتها.. كلهم يرقبون لحظات دخولك وخروجك.. ينظرون إليك بدهشة. رائحة من ابنتهم المفقودة أنت.. لقد طُبعتْ على وجهك ملامحهم.. هاهي جبهة "أيهم".. هاهو أنف "جدك" هاهو حجم ثغر خالتك.. هاهو طول جدتك.. حتى صوتك ورثت نبراته عند مؤخرة الأحرف الأخيرة المفتوحة عن أمك.. كل شيء يمضي ويترك بصماته.. هذا هو عناد الإنسان الذي يهوى الخلود.

زميلك باقر سيعمل خمس سنوات في إحدى دوائر الدولة ويُخطّط لفتح مكتب مدني خاص به وعندئذ سيشتري بيتاً وسيتزوَّج، وينجب أطفالاً.

وأنتَ يا راجي، لقد نسيتَ بأنَّكَ مُهندس، في أيّ اّتجاه تمضي، أنت ضائع، مدّ خطوتك إلى أي طريق وسر به.

ما هذا الذي أبحث عنه.. عن أي شيء أبحث.. أي شيء أريد.. ما المطلوب مني فعله، أحياناً يبدو لي بأنني كنتُ هنا وفي أماكن أخرى منذ سنوات طويلة.. ربما منذ خمسة آلاف سنة.

ولايعرف لماذا قفزت عبارات باقر إليه في هذا الوقت: مشكلتنا في هذه الطاقات التي نملكها ولا نرى المكان الذي نفرّغها فيه.. مواهبنا تختنق في الظلام.. إمكاناتنا تنهدر.. أريد أن أقدّم شيئاً عظيماً لكنني محكوم بالقيود التي لا أراها.. وهذه هي المشكلة.. إنني لا أرى قيودي ولا أحد يراها. أحياناً أركض.. أركض لكنني عند نقطة أشعر بأن خطواتي تنشَل وعليَّ أن أتوقف. كانوا في الماضي يا راجي عندما يشعرون بضجر الحصان وهو يدور في دائرة طوال النهار، يغلقون عينيه بخرقة.. فيسرع

الحصان ظاناً منه بأنه يسرع إلى الأمام. أحياناً أريد أن أفقد عقلي لأنه لا ينسجم مع هذا الدوران الجنوني إلاّ مجنون.

* * *

في اليوم العاشر من شهر كانون الأول وفي الساعة الواحدة ظهراً جلس راجي عبد الكريم بن السيد بدران في الغرفة التي شهدتْ ولادته مع أختيه المتزوجتين راجية وريم وبهذه المناسبة ذبح عمه خروفاً فطيماً ودعاه مع أختيه وعمه الثاني بكر في ظهيرة اليوم الثاني إلى تناول الغداء.. وفي الساعة الواحدة ظهراً اجتمعوا جميعاً تحت سقف غرفة ضيوف السيد عابد.

– هل تعينت يا ابن أخي؟ قال عابد.

أجاب راجي وهو ينظر في عيني عمه المتعبتين:

ما أزال جالساً في البيت.

– هل يلزمك المال لتؤسس مشروعاً؟ أموالك هي التي عندنا.

– لا يوجد مشروع في بالي.

قال عمه بكر: إذن توجد امرأة..

وفي لحظة مباغتة قفز اسم "كلناز" إلى ذاكرته تذكر بأنه أهمل الرسالة.. أجاب: ولا امرأة.

هل يزورك أحد منهم؟ قالت راجية

فهم الجميع مغزى كلمة "منهم" وقال راجي: فقط ينظرون إليَّ.. وقفز إلى ذاكرته وجه جدته.

– هنا أهلك.. ألا تفكر بالعيش بيننا لا أحد لكَ هناك.. وحدك في ذاك البيت..

فكر راجي للحظات ببيع الأرض.. بزاهية.. بالسفر خارج القطر.. فكر بقرار العزلة.. بالانتحار وبدا مضطرباً في جلوسه.

وربما أحس عمه عابد بشيء من حالة اللا استقرار في ابن أخيه فقال له بصوت رزين مثلما يقول حكمة: الحياة بدون هدف مضيعة للعمر. وأردف وقد مد يده إلى كتف ابن أخيه: الهدف هو الذي يقتل القلق ويحلّي الأيام.

بالأمس كنت أرى الخلاص في المرأة.. المرأة التي تدفن أحزان الرجل والآن أتردد في إعادة تلك الرؤية.. على المرأة أن تأتي وتثبت بأنني على خطأ.

ورأيت الخلاص في تجريب ملذات الحياة والسفر والخطيئة.

رأيته في اتخاذ قرار العزلة، ثم الموت، رأيته في القراءة في الكتابة في الهندسة ولم أقدم على اتخاذ أي قرار جدّي. خائف من أن تضيع حياتي مني وأخسر كل شيء.. أحب الحياة وأتعلق بها والآن،، لا شيء يضحكني،، لا شيء يبكيني.. وهذه الحالة تخلق لي هاجس التوتر والاضطراب.. أعلم مدى حاجتي إلى امرأة.. إلى أطفال.. إلى منزل دافئ.. في الزمن المبهم هذا كل شيء قابل للانكسار.. حتى الحلم الذي ينام في الذاكرة يأتون

ويخطفونه عندما يستيقظ للحظات.. وهل هذا بحاجة إلى ثقة.. إلى حديث طويل مع الذات.. أعلم حاجتي إلى حياة هادئة.. متواضعة.. وامرأة جميلة.. أخرج صباحاً إلى عملي مع آلاف العمال.. وأعود في الظهيرة إلى زوجتي.. إلى أطفالي.. آه لو علموا مدى حاجتي إلى تلك الراحة، أشعر بالضياع الحقيقي.. الضياع الذي ما بعده ضياع.

لكن أحاول أن أتوّه نفسي عن الحقيقة.. أقنعها بأنني مرفّه.. أعيش بحرية.. طليقاً كالطيور، أتحايل بكل الأكاذيب عليها لتنسجم مع كل المراحل التي لا تعجبني.. أقول: هذه مرحلة لا بد منها.. لتقبل أخرى جديدة.. وتأتي الأخرى.. لا تحمل سوى اكتشافات جديدة في الآلام تُضاف إلى جملة آلامي التي أعانيها.. أقول مرة أخرى: وهذه مرحلة أيضاً لا بد منها لأكتشف علقم الحياة وحلوها.. لأمرّ بكل التفاصيل.. ستأتي المرحلة العظمى بعد هذه.. لكن لا توجد مرحلة عظمى ويبدو بأنني أعيش فقط وكل مرحلة تقذفني إلى أخرى.

لن أبحث عن أحلام وأمنيات ومفاجآت.. ما يهمني هو أنني أعيش الآن، لا أخطط بما سأفعله بعد لحظات سيكون ذلك مباغتاً كالقدر.

لن أبحث عن الحب الكبير الذي يحوّل مجرى حياة الإنسان، ويصنع إنساناً آخر بدلاً عنه. الحب الذي أضعف أمامه إلى آخر رعشة وبذات اللحظة يملأ كياني قوة العالم المذهلة.. أيضا عندما تظهر المرأة الحقيقية الكبرى ستحمل معها الحب الحقيقي الكبير الذي يرتعش له القلب وتُذرفْ له العينان، إذ كل ما صادفت من نساء كن نساءً آنيات.. بنات اللحظة.. أشعر بواحدة ظهرت لتختفي.. لم تظهر المرأة التي تلبث مشرقة إلى المساء.. لتعاود الشروق في الصباح القادم "ها أنتِ جميلةٌ ها أنتِ جميلةٌ عيناك حمامتان من تحتِ نَقَابِكِ. شعركِ كقطيع معزٍ رابض على جبل جِلعاد. أسنانكِ كقطيع الجزائر الصادرة من الغُسلِ اللواتي كل واحدة مُتِمٌ وليس فيهن عقيم. شفتاكِ كسِلكةٍ من القِرمِز. وفمكِ حُلوٌ. خدُّكِ كَفِلقَةِ رُمَّانَةٍ تَحْتَ نَقَابِكِ. عُنُقُكِ كَبُرجِ داود المبنيِ لِلأَسْلِحَةِ. ألف مجنٍ عُلِّقَ عَليهِ كُلُّها أتراسُ الجَبَابرَةِ.

ثدياكِ كَخِشفَتَي ظبية تَوأَمَيْنِ يرعيان بين السوسن. إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المُرِ وإلى تل اللُّبَانِ.

كُلُّكِ جَمِيلٌ يا حبيبتي ليس فِيكِ عيبة".

إلى متى أسترسل في أحلامي.. الآن أنا هربت من الأحلام والتأمل والشرود.. أجلس مع أقرب رجلين إلي.. عليَّ أن أُشعرهما بأنني سعيد بوجودي معهما اليوم.

عليَّ أن أكون عاقلاً.. وأخاطب عمَّي بتهذيب.. إنهما في مكانة والدي.. عليَّ أن أحترم أي عبارة أقولها لهما.. أنا مخطئ.. وأعلم جيداً بأن تربيتي السيئة خلف ذلك.. إنهما يستثمران الأرض.. ويعطونني حاجتي.. ويعطون لأختَي.. بأي أسلوب طائش سأقسّم الأرض.. وأبيعها إلى رجل غريب لا يعرفنا من قريب أو بعيد.. هذا قرار يُظهر سخافتي..

– كن واعياً يا راجي.. أنت جئت إلى القرية لأنك اشتقت إلى أختيك.. إلى قبرَي والدَيك.. إلى عَميك وأولادهما.. كن متّزناً.. بمقدور قرار واحد أن يجرّدك من جذورك.. أنت ارتكبت حماقات بحق نفسك لو علم بها أحد هؤلاء لتغيرت طريقة

تعاملهم معك.. لقد كنت سافلاً، ولكن بالرغم من ذلك النار لم تأكل كل شيء.. لم يرها أحد.. لقد بقيتْ مشتعلة في داخلك.. وقد تأتي يوم وتشعر فيه بالبراءة.. وأنك كنت ضحية.. ضحية الحرية المبكرة وهذه هي إحدى مساوئ الحرية التي تُمنح بغتة لشخص صغير مراهق دفعة واحدة، الحرية الكاملة التي مُنحتْ لك وأنت في السادسة عشر من عمرك.. عندما جئت لأول مرة إلى المدينة لتدرس المرحلة الثانوية.

في أحايين ما.. يمكن للحرية أن تأخذ أكثر مما تعطي.. أن تهدم أكثر مما تبني.. يمكن لها أن تستعبد أكثر مما تحرر.. ورغم كل الخسارات الفادحة فيجب أن تقتنع بأنك المستفيد.

في لحظات ما.. رأى بأن عليه النهوض إلى العتبة.. وقرر أن يؤجل كل شيء.. وصل العتبة انحنى إلى الطشت الصغير.. تناول قطعة الصابون.. وسكبتْ ابنة عمه الماء الساخن على يديه.. نظّف يديه من الدهون.. وجمع في كفه رغوة بيضاء وضعها في فمه وبطريقة فرشاة الأسنان صار يدلك أسنانه بإصبعه.. وما لبث أن مد يده إلى المنشفة من كتف ابنة عمه الواقفة ومسح يديه

وشفتيه.. سمع صوت سكب الشاي في الكاسات الصغيرة. واستيقظت ذكريات في رأسه.. أحس بنكهة قديمة.. وجلس يحتسي الشاي.. قذف عمه سيجارة إليه.

في لحظات ما أبيح لنفسي كل شيء، همسها عقله وامتدّتْ يده إلى السيجارة دخنها مع الشاي.. هاهو السحر يا راجي.. أينما تذهب لا بد أن تحن للعودة إلى مسقط الرأس، إنه المكان الأكثر أمناً..

– قررنا أن نزوجك يا راجي.. قالها عمه عابد وهو ينظر إلى أخيه بكر..

وقال بكر: الحياة بين الأشجار أهنأ منها بين السيارات. وابتسمت ريم قائلة ممعنة النظر في وجه عمها بكر: وبنات القرية قنوعات أكثر من المدنيات. ورأى راجي بأن عليه أن يرد على الفور فقال: أنتما في مكانة المرحوم والدي، ولو كان حياً لما أرغم عليَّ وضعاً بالرغم عني.. الآن أحس بأنني مرتاح هناك في بيتي ولا أحس بحاجة إلى الزواج هذا العام.. المدينة تتيح أمامي فرص العمل والمعرفة والاختلاط.. وأنا أميل إلى العيش هناك.. هذه

رغبتي.. ما أزال صغيراً.. المدينة تعلمني الكثير.. وأمامي نحو ثلاثة أرباع العمر الذي عشته.. أريد أن أمضي نصف العمر في المعرفة وبعد ذلك أستطيع أن أعيش دون مضايقات إن بقي في العمر، كل خوفي ينحصر على "سمعتي" لدرجة اتخاذ العزلة.. حتى أتعلم.. أنا خائف، قلق على اسمي ومستقبلي.. الجامعة لم تعلمي ما فيه الكفاية.. ثلاثة أيام اختلط فيها بالناس، أدرك معنى الأخطاء التي ارتكبتها.. عندما أجرب العيش عشرة أيام متواصلة مع الآخرين بدون حماقات سأقترب من ثقتي بنفسي على نحو أفضل مما أنا عليه.

ومع انتهاء كلامه.. قذف إليه عمه عابد رزمة نقود.. نظر إليها راجي أمام ركبتيه.. مد يده إليها.. رفعها إلى عينيه

– عشرون ألف ليرة.. حصتك من محصول القطن.. اشتر بها ما يلزمك.

محصول القطن.. لكل شيء مقابل مادي.. حتى شقاء الإنسان ودمه.. أجل أيها الإنسان في لحظات ما.. تتنازل عن قيمتك وتنحدر.. إلى الدرك الأسفل من القذارة.. يا أيها الإنسان

الذي ينسيه المقابل بأنه إنسان.. الآن أكتشف أن الاقتصاد هو الشيء الوحيد الذي يتمكن من غدر الإنسان.. الاقتصاد هو الذي يتمكن من تجريد الإنسان من أسمى معنى..

وأعادها راجي إلى عمه:

لستُ بحاجة إليها.. لا تلزمني.. هذه هي الحقيقة.. ولا أرغب في وضعها في صناديق أو تحت الأرض.

– أجل يا راجي.. هذه النقود ستجردك من إنسانيتك.. ستنسيك راجي.. راجي الطفل.. مَن يركض خلف الحياة ينسى طفولته.. ينسى اسمه.. ينسى الأرض تحت قدميه.. وأنت لا تريد أن تنسى.

الاقتصاد لا يحل إشكالات الإنسان الكبرى.. لا يحل غير حاجات النفس الصغرى الآنية التي لا تنتهي وتكون دوماً مكررة.. وفي كثير من الظروف يخلق إشكالات اجتماعية مربكة.. وأعاد عمه الرزمة إليه.. أمسك راجي بها.. نظر إليها بتمعن ودفعها إليه مرةً أُخرى وقال: ما تلزمني نقود يا عمي.. بكرة أرجع لبيتي.

كانت هذه هي العبارة الأخيرة التي يقولها راجي ونهض. نام في بيت راجية حتى الصباح، واتجه على الفور إلى المدينة.

هاهي رسالة أخرى تستقر في العلبة البريدية.. سحبها راجي ونظر إلى المرسل: إنها من نفس المصدر.. نظر إلى علبة بريدها.. وألقى نظرة سريعة إلى الساحة المكتظة بالناس.. تخيلها تنظر إليه.. ولم يعجبه الموقف فأخذ الرسالة واتجه إلى البيت:

"لم أكن أعلم أنك ستكون بهذه القسوة وتهمل رسالتي الأولى إليك.. وتترك كفي ممدودة دون أن تجيب عليها.. أرجوك.. أن تردَّ عليَّ"

قلَّب الصفحة وكتب على الجهة الأخرى.. "أنا لا أرغب في هذا النوع من العلاقات.. هذا ما لديَّ" وتذكّر بأن الرسالة موجهة إلى شخص يرغب بهذا الأسلوب السخيف في بناء العلاقات. شطب السطر وكتب تحته: "هناك خطأ في كتابة العنوان.. أنا لستُ عبد الله"

تأمل السطر.. وشطبه مرة أخرى..

تناول ورقة بيضاء وكتب في منتصفها: "ربما نكون أصدقاء في وقت ما.. ولكن أرجو أن تؤجلي الآن" وكتب "ر" لم يكمل كتابة راجي.. تذكر أن المرسل إليه هو: عبد الله.. شطب على

حرف الراء.. وكتب "عبد" وشطب مرة أخرى: لكني لن أكذب. تركها دون اسم ودسها في مظروف.. كتب عنوانها.. وكتب على الوجه الآخر رقم علبته فقط.. واتجه في الصباح إلى مبنى البريد.. وضع الرسالة وعاد دون أن ينتظر ساعة واحدة في السوق.

لتذهب إنها تجربة سرية سأحس بأنني على علاقة بامرأة لن أراها، لن أخسر كثيراً من وقتي وهي أيضاً لن تخسر، سأتسلى وستتسلى.. دقائق معدودة في كل أسبوع أو كل شهر في الليل قبل النوم بلحظات سأقرأ رسالتها وأجيب عليها في لحظات

سأحس بأنني أنتظر شيئاً مجهولاً وأني أتحدث مع شخص من خلف جدار.

عليَّ ألّا أخدعها ولا أكذب عليها، أكون صريحاً وعندما لا أرغب، سأعلمها بأنني سأنقطع عن مراسلتها حتى لا تهدر وقتها بانتظاري، حتى لا أسبب لها لحظة ألم.

راجي.. اقرأ يا راجي.. اقرأ بوعي.. وتأمل يا راجي.. المعرفة تجلب السعادة تجلب الحظ تجلب الحياة. أحمق ذاك الذي يظن أن صاحب العقل يشقى به وصاحب الجهل ينعم

بجهله، إنه مفهوم مظلم، الجهل يجلب الفاقة والفقر، أن تفكر لتخرج من الجهل خير من أن تبقى جاهلاً ويُصدّي عقلك، هذا العقل الذي تعقد عليه معجزات المستقبل، والإشراق الروحي الذي لن ينبثق إلا من خلاله. أمراض العقل فضائل، وأمراض الجهل رذائل، أن يوجعك رأسك من التفكير خير من أن يوجعك من عدم التفكير، هذه عظمة الحياة، تُريك كل شيء، كل شيء يا راجي و أنت تغتنمها يا راجي، وتعتصر كل طاقة فيها وفيك تجلب اكتشاف جديد لم تكن تعلمه، أجل سوف تدرك أشياء أخرى أكثر أهمية، سوف تدرك كم أنك تشرق بخطواتك وأنت تمشي تحت شمس الله وبين كل هؤلاء الناس، ستشرق روحك وهي تصغي لموسيقى الحياة.

وبغتة تأتي كلناز بحضور مدهش، كلناز صاحبة الرسالة، امرأة يا راجي.. امرأة تمد إليك يدها، لماذا لاتمد يد الاستجابة؟ أنت أحمق يا راجي، ما تزال تتلقى الدروس.

أنا أرفض المرأة في هذه الفترة العصيبة من حياتي، لستُ مهيأً لاستقبال المرأة، ستقتلني، يمكن لحضور المرأة في حياة الرجل أن يكون قاتلاً بعض الأوقات وهذه أوقات غير قابلة لاستقبال المرأة.

إنها امرأة يا راجي، امرأة تشبه "زاهية" التي تعتلي السطح المقابل نصف عارية تنشر الثياب وتغريك بحركاتها "الأنثوية" وتقذفك بالحصى، امرأة هذه مشكلة أخرى تضاف إلى مشكلاتك، كلما تحاول أن تنسى المرأة فإنها ما تلبث أن تُذكّرك بنفسها. تخيّل يا راجي أن تجلس امرأة بجانبك ثلاث ساعات متواصلة، تخيل عودتك من العمل ووجود كائن أنثوي يكون في غرفتك ينتظر عودتك باللحظات، تجلس فيجلس معك، تأكل، يأكل معك، تمشي يمشي معك، تنام ينام معك.

تصوَّر أنها لا تخرج من غرفتك شهراً كاملاً بكامل أيامه وساعاته ولحظاته، تصوَّر أنه سيغدو شريك حياتك وأنت تنتظر يوم العيد حتى تترك بيتك وتذهب إلى بيتها عندئذ ستشعر بلحظات العودة إلى حياتك الثرية هذه، ولكنها بعد أيام ستعود تفسد عليك كل شيء من نعمة السكينة، وستنجب أناساً سيكبرون، سيمتصون عمرك ليعيشوا.

المرأة ما المرأة..؟ هل بمقدور امرأة أن تغتال كل هذا العمر الثري، أن تأتي وتفسد كل حياتك وتهدّ أحلامك.. إي يا راجي.. سيموت الحلم.. يموت التأمل.. تموت الكتابة.. يموت العقل.. وسينتهي كل شيء. تحترق دفاتر عمرك، تجف أقلامك، ستغدو كأي رجل بائس من حياته يمضي في الشارع وهو شارد بالمرأة التي تركها في البيت، ستحيلك المرأة إلى رجل محطّم منهار، الكتابة تبنيك لبنة لبنة، وتأتي المرأة لتهدك لبنة لبنة. انظر إلى زاهية يا راجي، لقد أعطاها زوجها كل حياته ولا يكفيها، إنها تبحث عن رجل آخر ولن يكفيها، لم تستطع ليوم واحد أن تشعرك بأنها ليست شكلاً، ديكوراً بلا مضمون.

إنها تبدو أمامك مثل ورقة صفراء وتريد أن تنفخ عليها لتطير وتدخل غرفتها من النافذة. أنت الذي تتحدى العالم كله، ترضخ أمام نزوة. لا يا راجي تذكّر يا راجي طفولتك، عد إلى تلك المشاهد التي احتفظت بها ذاكرتك، أنت الآن في الخامسة من عمرك، هاهو حمار يظهر على مشهد يسقط تحت ثقل برميل ماء، وهاهي المرأة التي تقودهُ ترفع البرميل من ظهره إلى رأسها، تحمله وتمضي غير آبهة بأي ثقل، ذاك الثقل الذي أنهك الحمار ذاته وها هو زوجها يظهر على المشهد في مدخل الدار ينظر إليها ويتخيل أنه يعجز على حمل البرميل على رأسه، ويصارحها دون خجل أو طعن في رجولته. وحدها المرأة التي استطاعت أن تتخلى عن أنوثتها، ولكن زاهية لا تستعد أن تتخلى عن أنوثتها التي تطاردها بالسوط، عندما تصعد الباص يقوم رجل ما فتجلس وتحس بأنوثتها، وعندما تدخل إلى مكان ما، تتلقى الابتسامات التي تذكرها بأنوثتها وتعُامل بخصوصية فتلتصق بأنوثتها، إنهم يتحدثون معها بليونة وشفاه مرخية يوحون إليها بأنها مخلوق ناقص بطريقتهم في التعامل معها، وتضطر أن تجيبهم من الموقع

الذي وضعوها فيه. هنا في المدينة يصرون على أن يذكروها بأنوثتها المقترنة دوماً بالنقص، وفي القرية يصرون على أن يُجردوها من هذه الأنوثة، كانوا يشتمون النساء مثلما يشتمون أي رجل ويتشاجرون معهن بالأكف والرفسات، يفرضون عليها القيام بالأعمال الزراعية المضنية نيابة عنهم، وكنَّ يستجبن وينسين أنوثتهن، ومع التقدم في العمر يتخلين عن أنوثتهن وهذا التغيير لا ينحصر في المضمون فقط، فيقفز ليشمل مظهرهن الخارجي، وغالباً ما كانت المرأة هناك ترتدي فروة زوجها وبنطاله وكنزته وحذاءه، فقط ساعة واحدة هي ساعة منتصف الليل تذكرها بأنوثتها عندما تمتد يد الرجل إلى جسدها، في تلك الساعة تستيقظ أنوثتها وتستجيب ليد الذكر فتعيش ساعة واحدة في رحاب الأنوثة، تلك تكون أخصب وأمتع ساعة، وتستمتع بها كما لم تستمتع بها أنثى قبلها على وجه الأرض.

ها أنت عدت إلى الغرفة الكئيبة مرة أخرى، الغرفة العارية أي شيء، الدراسة انتهت وأنت تكبر، لا جدوى من حياتك يا راجي، إنه فراغ قاتل هذا الذي يتلبس حواسك، لا شيء أمامك عليك أن تكون شجاعاً وتستسلم للموت، الموت راحة أبدية رغم سوداويته مثل إبرة التخدير، ترعب عندما تنغرز في الجسد لكنها تريح الإنسان من الإحساس بالألم الأكبر الذي لا يمكن له أن يتحمله فيما بعد:

وداعاً أيها العالم وداعاً لكم وداعاً يا كتبي يا قيثارتي يا أشرطتي يا مسجلتي الكئيبة، وداعاً لقد انتهى كل شيء، ماتت الحياة فيَّ، إنها الخطوة الأخيرة من خطوات التردد واليأس.

لا شيء لي في الحياة أودعه لا أم لا أب لا صديق لا حبيبة لا شيء على الإطلاق، ما أجمل ميتة كهذه لن يبكي أحد عليَّ لم أعد أحتمل الحياة بلغ بي الجرح أقصاه. أترك الحياة وأرحل إلى نور الأبدية، كل شيء ضاع، يا للخسارة الفادحة إنني الآن في أتعس لحظات الحياة، إنني مقبل على الهوة السحيقة بدون أسف على أيام الجوع الحرمان الضنك والأحلام

التي لم تتحقق، مات الأمل في الروح، ماتت الرعشة الأخيرة من رعشات الحياة، في هذه الغرفة المغلقة سأموت ولن يعرف بموتي أحد، ستمر السنوات وألبث في فرشتي وإذا ما صدف وحطموا بابي سينقلون ما بقي من بقاياي إلى مكان مظلم آخر وسيتحدثون للجميع عن عزلتي، عن رسالتي الأخيرة، لا بد أن هذه هي النهاية، إنها إشارة الله الأخيرة إلى روحي.

استرخى راجي في فرشته واستسلم للموت، أغمض عينيه، نسي كل شيء في الحياة، ولبث يتذكر شيئاً واحداً هو أنه سيموت بعد لحظات بسعادة العالم.

هذه الحياة التي جئتها، عليك أن تتحمل كل شيء، هي سنوات قليلة ستقضيها وستموت، مت بهدوء دون ضجيج، وبعد يومين فقط من موتك ستكون "نسياً منسياً".

ليس بوسعك إلّا أن تتجنب الآخرين كي تعيش بهدوء وكي لا تضطر للكذب والنفاق والجشع وإغراءات الخارج.

يمكن لك أن ترتكب أي خطيئة بحق شخص ما عندما تخرج، لكن هنا لن يحدث هذا.

الآخرون دوماً يأتون ويجلبون الشر معهم هنا يمكن لك أن تعيش في عالمك وتفعل ما تشاء بين هذه الجدران المغلقة، المسألة تخصك فقط، إن أي خطيئة ترتكبها لا تضر أحداً، ستكون شخصية تخصك وحدك، لو ألحقتَ الضرر بنفسك، أنت لوحدك ستدفع الثمن.

وعلى الرغم من هذا لا تسرف في الحماقات، ليس بوسعك أن تحتفظ بشيء إلى الأبد، اللحظات هي التي سترقص حولك وهي هاربة، لن تتمكن من الاحتفاظ بلحظة واحدة لحظتين. ستدفع عمرك لحظة بلحظة في جميع الأحوال. إي يا راجي لا شيء لك في هذه الحياة كلها سوى عزلتك، حافظ عليها حتى لا تخسرها وإن خسرتها خسرت كل ما تملك ولن تملك شيئاً بعدها حتى لو أصبحتْ المدينة كلها لك، شيء تافه أن تكون المدينة كلها لك، شيء سخيف أن تكون حارساً عليها.

هاهو الصمت الجميل يحتفي بحضورك وعند ذاك عندما تستسلم إليه سيخلص لك ولن يدعهم يتحدثوا عنك بسوء،

سيسهّل نسيانك عليهم وهذا أنبل شيء يقدمه إليك هذا الصديق الوفي عندما لن يكون بمقدور أحد أن يقدم لك شيئاً.

الشر دوماً يأتي من شخص قادم إليك ويمكن أن يجعلك شريراً في أحلك الظروف كما يصنع شرّيرو العالم، ينتشي عندما يجدك مستنفراً، ويستاء عندما يجدك آمناً هادئاً، لا ينصرف قبل أن يعكّر عليك أمنك، سيجعلك خصماً لآخر وسيجعله خصماً لك وسينتقل بينكما يُنقل ما يشاء بإضافات قاسية بحقكما، إنه الحقد الأعمى الذي يملأ النفوس، هذا الحقد الذي ترفض من عمقك أن تشارك فيه وبقوة هذا الرفض ترفض هؤلاء أنفسهم.

كن شجاعاً واتخذ القرار ما أعظم أن تعيش سنوات عمرك بدون أحد، كن مع نفسك ستتعرف عليها وعندئذ ستتعرف على العالم من خلالها، معرفة العالم لن تقدم شيئاً لشخص يجهل نفسه، لشخص يعيش حالة اغتراب مع حواسه، عندما تمد الخطوة تجاه نفسك، ستكون تلك الخطوة هي الأولى تجاه معرفة العالم.. ستدرك قيمة تعلّم شيء ما.. عندما تتعرف بنفسك ستتهيأ لاستقبال المعرفة الثمينة.. ستدرك أن الإنسان مليء بالألغاز..

مليء بالمعرفة، مليء بالدهشة، كل إنسان عالم مغلق من الأسرار.. من أسرار الطبيعة وكل الكواكب وسكانها الإنسان ليس فارغاً يا راجي وكلما مدّ خطوة نحو المعرفة اتضحت أمامه الأسرار.. كلما استطعت أن تصارع الشر وتنتصر على قوته ستمد خطوة جديدة نحو المعرفة.. نحو الإشراق البشري.. عليك في البدء أن تنتصر على قوة الشر.. على النزعات العدوانية، وأهم معركة تقودها هي معركتك مع نفسك في سبيل انتصار قوة الخير على قوة الشر لديك، ستلبث كل الأبواب مغلقة قبل انتصارك العظيم، وإذا انتصرت قوة الشر يا راجي، سأغسل روحي منك، سينطفئ نور الإنسان من خلاياك.. سيسري ظلام الشر الحالك في عروقك ويستوطن كل ذرة فيك. أنت عالم كامل من الجهل يا راجي.. يستوطنك الجهل، هذا الجهل الذي يفتح أمام حواسك أبواب الشر.. يعمي بصرك ولا ترى غير الظلام.

ستركض طويلاً يا راجي نحو نفسك.. نحو خطوات التخلص من ثقل الجهل عليك.. الجهل الذي يملأ عروق الإنسان عدوانية ويجعله يدور حول نفسه في دائرة العدوانية.. المعرفة يا

راجي هي الماء التي تخفف من لهيب العدوانية في الروح.. كل واحد يمارس عدوانيته بطريقته الخاصة.. خالك مارس عدوانيته على أخته.. أبوك مارس عدوانيته على زوجته.. عمك يمارس عدوانيته على أموالك.. وعندما تنظر حولك سترى أشكالاً متفاوتة.. عدوانية القتل.. عدوانية الاغتصاب.. عدوانية الجنس.. عدوانية السرقة.. عدوانية الوشاية.. عدوانية الاحتيال.. تبلغ العدوانية ذروتها في القتل قتل إنسان كامل.. هو عالم من الأحلام والأمنيات والحب والكفاح والشهوات.. إنسان مليء بالتفاصيل والعلاقات والصداقات والذكريات والأسرار.. وتنحدر العدوانية في درجاتها إلى اشتهاء امرأة وممارسة العادة السرية، وهي حالة اغتصاب قسرية بحق امرأة في الخيال.. وستسأل نفسك وأنت في أعماق عزلتك المنسية في رحلتك البعيدة.. البعيدة عن فضاءات يمكن لها أن تلقي بظلالها على عدوانية الإنسان ويبقى مشرقاً بقوة البناء الخفية.. هناك في زوايا ظلمتك ستستيقظ أسئلة لن تجيب عليها..

* * *

يصر على العزلة.. يسبح في فضاءات الفراغ يغلق الباب على نفسه وينسى بأنه يعيش في مجتمع.. تتوالى الطرقات على بابه.. يوهم نفسه بأن الطرق على أبواب وهمية. ويزداد عناداً في التمسك بالوحدة حتى النهاية: لن أفتح وإن تحطمت كل الأبواب ما أروع أن أكون بعيداً عن العالم.. ما أروع ألّا أسمع صوت أحد ولا يسمع أحد صوتي.

تمضي الأسابيع والشهور وهو ما يزال في غرفته، فقط زاهية تقذف إليه من خلف الجدار أرغفة الخبز والطعام. في هذه الغرفة سيمضي حياته إلى أن يموت.. لقد اتخذ القرار.. ولن يخرج حتى لو مات جوعاً.

راجي عبد الكريم المتخرج منذ أربع سنوات من كلية الهندسة ينظر إلى العلاقات الاجتماعية بازدراء: إذا أردنا أن نعيش بسلام، علينا ألّا نعقد علاقات خاصة مع الآخرين. في

عزلتي أتجنب إشكالات الحياة وأكتشف أسرارها في وقت واحد ولا أصدق أن أحداً يكتشف خفايا الحياة بقدري في عزلتي هذه.

العزلة هي الحياة الحقيقية الثرية، لستُ أنا مَنْ يُعاني النقص، لستُ بحاجة إلى أحد، لا يوجد ما يُسمى بالمجتمع، المجتمع هو المجموع الذي مات منذ آلاف السنين، أمَّا أنا ففرد، لستُ معنياً بالمجتمع، المجتمع هو المَرَض، إننا أفراد ولسنا مجموعة أفراد، لا أقبل أن أكون في دائرة المجتمع، أنا سأضع المجتمع في دائرتي.

إنَّنا نواصل العادات التي كان يقوم بها أولئك الموتى حتى لا ننسلخ عن جلودنا، لكنَّنا لسنا موتى.

أفهم شيئاً واحداً الآن هو أنَّني موجودٌ ومسؤولٌ عن وجودي، عليَّ أن أكون بمُفردي عندما يفرض الخارج عليَّ أوضاعاً تتناقض مع ميولي وطريقتي في الحياة، وأفهم أيضاً أن لبقاء الفرد بمفرده "قداسة" في حالةٍ شديدة الخصوصية.

محاولة للاقتراب من أخطر الأفكار المغروسة في المخيِّلة.. عندئذ فقط.. يشرق العقل.. ينفتح كاملاً لأوَّل مرَّة عندما يكون

"لوحده" وأحترس من مداهمة أي أحمق لهذه الحالة الخاصَّة لِمجرَّد لوي قبضة الباب أو رفسه، لأنَّني في تلك اللحظات أكون على اتِّصالٍ مع أكثر المخلوقات اللامرئية "لا مرئية".

لا أكون كأولئك الذين يسعون لإضاعة أعمارهم.. أولئك الذين لا يدعون فرصة واحدة لإزعاج الآخرين للذهاب إلى البيوت وطرق الأبواب والنوافذ.. أولئك الحمقى.. الذين يسلبوننا أعمارنا وحياتنا.. الضاجرون من أعمارهم وحياتهم.

يعتقدون أن البشريَّة كلها مهيأة لاستقبالهم لحظة يشاؤون.. ويختارون الذين سيزورونهم.. ويقولون بأصوات عالية: غداً يوم عطلة.. سنذهب صباحاً إلى (س) وظهراً إلى (ج) وعصراً إلى (ح) ونتعشى في بيت (خ) ونسهر في بيت (ش) هكذا يخططون بعشوائية ويغتالون أوقات الآخرين.. بمجرد أنهم ألقوا بسلام لمرة واحدة عليهم. أو تعارفوا في شارع ما.. أو في حافلة النقل الداخلي.. إنهم يهدرون أوقاتهم وأوقات إخوانهم.. إنهم الفاشلون الحقيقيون. أما بالنسبة لي.. يمكنني البقاء هنا.. ورؤية كل أسرار حياة الإنسان.. من هنا أرى كل الخفايا من ثقب صغير في الذاكرة

اللامتناهية.. ولا أشعر بذرة طمأنينة عندما أكون هنا.. ويكون الباب مفتوحاً.. ذاك الباب الذي يهيئ الاقتحام عليَّ.. وإفساد كل اكتشافاتي ولحظات قداستي الثرية التي اعتصرها من بقايا أيامي وساعاتي.. وتدر عليَّ بأثمن الكنوز.

السبيل إلى معرفة العالم يكون عبرك.. الهجرة الأثرى التي عليك القيام بها، هي الهجرة إلى ظلماتك بمركب العزلة.. عندما تتعرف بنفسك، تتعرف بالعالم.. تتعرف باللّه.. لا تدع من يفسد رحلتك خلال عزلتك الداخلية.. وعندما تعود من رحلة العمر الثرية ستقدم للآخرين الحب.. ستقدم إليهم نفسك.. تهديهم كل ما لديك وكذلك سيكون بإمكانك أن تراهم أكثر مما هم يرون أنفسهم، تخبرهم أكثر مما هم يخبرون أنفسهم.

كل ما يمكن فتحه بغتة تم إغلاقه.. والجدران امتلأت بقطع زجاجية وأي يد تمتد لتعين جسداً على القفز فإنها تفشل.. لا يوجد ثقب في الجدران أو الغرفة إلّا وأغلقه.. ويفكر أن يُسقّف الحوش كله حتى لا يرى السماء والضوء.. إنها حرية كبرى تلك التي يحسها في هذه العزلة. تنفتح في خياله أبواب مغلقة..

ويتواصل مع أسرار لا يمكن لغيره أن يفكر بها.. يدوّن كل اكتشافاته على دفاتر ضخمة.. يكتب مئات الصفحات.. وإذا مر عليه يوم دون أن يجلس ويكتشف سراً ما.. فإن ذلك اليوم يُعد مشؤوماً وخسارة لا تعوض.. كل ما يتوصل إليه يحتفظ به لنفسه.. ويعتبر الكتابة حالة شديدة الخصوصية.. لا يفكر أن يبوح بكلمة واحدة لأحد.. يرى أن عقول مَن حوله لا تحتمل مفاجآته المدهشة: العالم كله سيخضع لإعادة البناء أمام اكتشافاتي هذه وسيتبدل الإنسان أمام ما توصلت إليه حتى الآن.

في هذه الغرفة المحكمة يواصل راجي تأملاته وكتاباته.. وعندما يفرغ.. يقرأ حتى يدركه النوم.. ويستمع إلى المذياع ساعة واحدة يتواصل مع ما يجري في العالم. مساكين هؤلاء.. مرضى.. يلحقون الضرر بأنفسهم.. كم يبدون صغاراً أمام نضجه.. أمام صفحة واحدة من صفحات المعرفة التي تشرق بها روحه: لا أحد يفكّر يا راجي رغم هذه الأعوام المتواصلة.. ما زال العقل نائماً لم

يستيقظ.. يقظته تُبشر بالخلاص الأبدي، سيصبح العقل مثل عصفور في كفك.. كن أكثر ثقة بقدراتك يا راجي.

قبل الغروب بلحظات وقف راجي أمام باب الحوش وفتحه.. عندئذ وقع بصره على شخص.. تراجع بذعر، أراد أن يقاوم، ولم يستطع. وبدا الخروج مستحيلاً، أحس بأن الناس كلهم ينتظرون خروجه ليتفرجوا عليه.. ليوبخوه.. ليروا أي شخص هذا الذي يرفضهم. وعرف أنه لم يعد يرفض الخروج، بل أنه لم يعد يجرؤ لو رغب. وعاد إلى غرفة الكتابة: "هل أغلقتَ باب الحوش" وركض إليه.. تفحصه، رآه مقفولاً.. أراد أن يتأكد ففتحه وأعاد غلقه.. ثم رجع. في منتصف الطريق خطر له بأنه لم يغلق الباب، وعاد إليه رآه مقفولاً، ومرة أخرى فتحه وأغلقه من جديد بالقفل، وبعد لحظة فتحه مرة أخرى كي يطرد الوساوس وأقفله بالمفتاح إلى آخر طرقة إقفال.

عاد إلى الغرفة، استلقى على ظهره وبعد دقائق خطر له مرة أخرى بأن الباب لم يُقفَل، قال: "لكنني أقفلته"

– ربما شردتَ بشيء آخر وتركته مفتوحاً ظاناً بأنك أقفلته.

– ليكن.. لن أنهض.. ثم بعد لحظات أردف: ولماذا لا أنهض.. سأبقى قلقاً حتى الصباح.. سأتأكد في لحظة وأعود مستقراً.

ونهض.. وصل الباب.. مدّ كفه إلى القفل تأكد من إغلاق الباب بإحكام.. وعاد بخطواته إلى الوراء.. تذكر: كيف تأكدتُ من القفل.. كان علي أن أسحبه نحوي بقوة لأتأكد.. ربما يدفعه أحد من الخارج وينفتح.

– لا.. لا يا راجي لن ينفتح.

وتوتر مرة أخرى.. تعرّق جسده.. اضطربت معدته ولم يحتمل فنهض مرة أخرى في انهيار نفسي حاد وجرّ الباب فلم ينفتح.. بصق عليه.. وعاد.. رأى صحنين عند العتبة.. فحملهما إلى المطبخ ضمهما إلى الصحون المتسخة وخرج، ثم خطر له: لماذا لا تغسل الصحون الآن يا راجي؟

– لكنها لا تلزمني.

– وقد تموت وتبقى هناك متسخة.. سيقولون بأنك كنت قذراً.

وعاد إلى المطبخ.. غسل الصحون كلها.. ثم غسل المطبخ ورتبه. عاد إلى الغرفة ليستريح، وقع نظره على فتات خبز وبقايا طعام.. حمل المكنسة ورتب الغرفة.. تذكر بأنه لم يكنسها منذ اتخاذ قرار العزلة.. قد تموت يا راجي.. ليكن كل شيء مرتباً. وراح يرتب الكتب ويضع كل اسطوانة كاسيت في علبتها: "هل تأكدتَ من إغلاق الغاز"؟ هرع إلى المطبخ.. أدار المفتاح فصدرت رائحة الغاز، ثم أغلقه.. وفتحه مرة أخرى.. وأغلقه بقوة ثم فتحه قليلاً.. وأغلقه بتمهل، نظر في المطبخ.. لملم بقايا أوساخ بأصابعه وعاد إلى الغرفة.. وتذكر بأنه لم يغسل يديه من آثار الأوساخ التي التقطها من المطبخ فعاد وغسل يديه بالصابون.. ثم دخل المرحاض لبث نحو ربع ساعة وخرج عاد مرة أخرى يغسل يديه بالصابون.. كانت الساعة قد وصلت إلى الثانية بعد منتصف الليل فتمدد على فراشه منهكاً يثقل النعاس عينيه.. تذكر بأنه لم يكتب شيئاً ولم يستمع إلى المذياع.. فنهض لكنه شرد بشيء آخر: هل وضعتُ كل اسطوانة في علبتها؟ وبدأ السؤال يقلقه.. أراد أن يهدئ نفسه قليلاً فنط إلى الأشرطة التي يتجاوز عددها

الثلاثمائة كاسيت ونظر إليها واحدة واحدة بتفحص وكانت كل واحدة في علبتها.. ثم خرج مرة أخرى وتأكد بأن الغاز مغلق ومن هناك تأكد من إقفال الباب.. وعاد إلى الغرفة وهو يشعر بثقل في روحه، ولم يستطع النوم. أحس برغبة شديدة في الكتابة رغم نعاسه الشديد فحمل القلم وبدأ يكتب ما يحدث معه من تفاصيل لهذا اليوم وهذه الحالة التي داهمته فجأة والتي لا يستطيع أن يسيطر عليها، استغرق ذلك إلى الخامسة صباحاً عندئذ فتح المذياع واستسلم لنوم عميق.

عندما استفاق في الثامنة والنصف صباحاً.. أدرك بأنه لم يتخلص بعد أعراض تلك الحالة.. فنهض وغسل ثيابه.. ثم أعاد غسلها.. وصار يضع كل شيء في مكانه.. ومرة أخرى أعاد كتابة ما كان قد كتبه في الليلة الفائتة.

ها أنت يا راجي تستسلم لقوة الشر وتفسح لها الأبواب لتسكنك.. إنها ستقتلك يا راجي.. ستقتلك.. لن تدع لك مجالاً للتنفس.. الشر يبحث عن إنسان ضعيف ليستبد به.. يدخل إليك الشر من النافذة، يخترقك مع الشهيق ويسكن حواسك.. فقط

قوتك الكامنة الخفية بمقدورها أن تطرده.. هل جئت إلى هذا العالم لتغسل الصحون وتعيد إغلاق وفتح الباب عشرات المرات كالمهووس.. ثمة مهمات أسمى جئت لها يا راجي.. الباب الذي فتحته لن ينغلق قبل أن يقضي عليك.. هاهو الشر سكنك.. وليس من سبيل إلى طرده غير عودتك إلى الفوضى.. غداً سيأتي من يتولى هذه التفاصيل ويتفرغ للقيام بها. سوف تطرد قوة الشر التي استعمرتك.. أجل تطردها عندما تتصارع معها بذكاء.. عندما تنتصر عليها.. سوف تطرد قوة الشر التي استعمرتك.. أجل تطردها من حواسك عندما تبدأ في مواجهتها.. عند ذاك ستعلن ضعفها أمام قوتك.. ستعلن ضعف الشر أمام قوة الإنسان الخارقة.. وكلما تبدّى ضعفها، عادت إليك قوتك، ومن هذه الانطلاقة ستكون قوياً أو ستكون ضعيفاً.. ستكون مواجهاً أو ستكون انهزامياً، أنت جئت إلى الحياة.. فازرع وردة قبل أن تخرج منها، لا تزرع شوكاً في روحك.

استفاق راجي في الثانية عشر ظهراً ضبّط مؤشر المذياع وصدحت أغنية.. طاب له أن يستمع إليها.. وبعد قليل ذكّر مذيع بالساعة واليوم والشهر والسنة وما حدث في مثل هذا اليوم خلال القرن الفائت.. فعرف راجي بأن سنة مرتْ على عزلته.. سنة كاملة لم ير الخارج.. وأحس بألم في رأسه.. نهض.. بدا الجسد ضعيفاً على حمل الرأس.. مد يده إلى رأسه ولم تصل اليد.. عندئذ عرف بأن رأسه خرج عن حجمه المألوف.. وارتعب.. فتح ذراعيه وبالكاد استطاع أن يتلمس صدغيه: هذه مشكلة جديدة تُضاف إلى جملة مشكلاتك يا راجي. وضع رأسه على الوسادة التي بدت كلفافة تبغ تحت حجم الرأس: ماذا ستفعل بهذا الرأس يا راجي..؟ سيذعر الناس من حجمه.. سيجعلك مسخرة.. ستشتهر وأنت تصر على ألّا تترك ما يُذكّر بك للحظة واحدة.. هاهي "الفضيحة" الكبرى.. سيُصفّقون لك في الطرقات.. سيقذفك الأطفال بالحصى.. أنت الذي لا ترغب في أن يراك أحد ولا تراه.. سنة كاملة مضت.. وتوصلت إلى اكتشاف أشياء أخرى.. أضفتها إلى مكتشفاتك.. أصبحت أوعى.. وأنضج

من السنة الفائتة.. مفهومك لوجودك غدا ناضجاً.. لم تعد الأفكار تتعب رأسك.. لم تعد الألغاز تصر على غموضها.. لقد انفتحت أمامك الحياة.. وتستطيع أن تعيشها بسوية إذا أردت.. سنة كاملة لم تستحم.. لم تحلق شعرك.. ذقنك.. لم تقص أظافرك.. لم تذق حبة فاكهة ولا قطعة لحم.. ولولا حسنات زاهية لكنت الآن ميتاً من الجوع..

راجي هذه نهاية بائسة.. عليك أن تتوقف عن التأمل والكتابة ليومين حتى لا تموت، قد يعود رأسك إلى حجمه المألوف عندما يرتاح.

استرخى راجي.. وقرر الراحة وعدم التفكير بأي أمر.. وبعد مرور ثلاثة أيام.. أحس السيد راجي بان رأسه قد صغر.. عاد إلى حجمه الطبيعي.. وبسرعة دخل الحمام.. حلق ذقنه.. قص أظافره وبعد قليل خرج.. ارتدى ثيابه.. إي يا راجي.. ستخرج.. سترى نور العالم.. والشمس.. والمراهقات الجميلات اللواتي يذهبن إلى المدارس.. هاهو الإنسان يمر بمراحل.. لا يبقى ثابتاً.. وهنا عظمته.. هنا سر استمراره.. الحياة مد وجزر.. فقط الموت

يعني الاستقرار.. الشرط المسبق لوجود البحار هو المد والجزر.. وهكذا يا راجي الحياة، الشرط لوجودها هو الحزن، والسعادة، السعادة الأبدية تقتلك.. كذلك يا راجي الحزن الأبدي.

إذن ألست من لحم ودم..؟ حتى الحجارة تنفعل في أوقات معينة وتشرق في غيرها.. هل تريد أن تعيش ثلاثين سنة في ثلاثة أيام وفي هذه الأيام تأخذ ثلاثين سنة لماذا لست صبوراً.. ولا تنتظر أن تعيش الحياة سنة بعد سنة؟ كل سنة تنفتح لها أبواب جديدة كانت مغلقة، هناك في الطرقات.. في قلب المدينة روائح عليك استنشاقها.. لتعود مرة أخرى وتسأل: لمصلحة مَن هذا التفسخ مَن الذي يشجع انهيار الأخلاق, تهميش الأسوياء.. وتعود مرة أخرى إلى البيت تغلق الباب على نفسك ألف عام. وتكتب على بابك: أنا غسلتُ يدَي منكم.

* * *

في السابعة والنصف صباحاً امتدّت كف راجي إلى قبضة الباب.. فتحه قليلاً.. مدّ رأسه وعاد إلى الداخل: "ماذا سيقولون لو رأوك يا راجي"؟! مدّ خطوة ووقف أمام الباب: عد يا راجي إلى مكانك. وراوده شعور مَن يخرج من القبر.. ويواجه الناس في حارته.. تقدَّم خطوات في الشارع تاركاً الباب مفتوحاً، وعاد هرولةً.. أحس بأنه لن ينجح.. دخل البيت وأغلق الباب.. وعاد مرة أخرى إلى الباب.. مدّ خطوة بثقة.. رأى خاله المعتوه يقف في الشارع.. وعاد مسرعاً إلى الداخل.. فتح المذياع.. وبعد قليل أغلقه.. رشف رشفة ماء ودنا مرة أخرى إلى الباب. خرج بتلقائية مفتعلة.. سار خطوات عديدة في الشارع.. أحس بأنه لا يستطيع أن يكمل وما شجعه على العودة تذكره لترك الباب مفتوحاً والمذياع أيضاً.. عاد بهرولة وقد تعرّق جسده وأحس بإنهاك تام يقتحم مفاصله ويلقيه في الفراش.. بعد مرور عشرة أيام من المحاولات الفاشلة في الخروج استطاع أن يقنع نفسه بضرورة الكفاح من أجل الخروج ولو ليوم واحد، وفي الساعة التاسعة صباحاً خرج من بيته بعد قضاء أكثر من سنة في عزلة كاملة.

وصل السيد راجي إلى مبنى البريد.. فتح علبته.. سحب منها أربع رسائل.. وهبط درج المبنى.. وقف في موقف النقل الداخلي.. أحس بأنه كان ميتاً، تأمل الوجوه.. هي الوجوه ذاتها.. الكآبة ذاتها.. كتب المشهد بدقة.. صوّر كل تفاصيله.. وبعد ثلاث ساعات انتهى من الكتابة.. ثلاثون صفحة.. أفرغ فيها كل مشاعر الاكتئاب.. وقذفها إلى جملة الأوراق.. نظر إلى الرسائل.. اثنتان من كلناز، واحدة من باقر، واحدة من سليم. مزق مظروف:

"في هذه الساعة المتأخرة جداً من ليلتي البائسة أكتب لك لتسمعني وحدك ولا أحد غيرك في العالم كله أكتب إليه حرفاً واحداً، لا أحد يسمعني حتى لو صرخت بأعلى صوتي في مكبرات الصوت. كنت أبحث عن شخص واحد أقول له كل شيء حتى لا أختنق.. أحس بعزلة قاتلة.. أرجوك أنقذني.. لماذا لم ترد على رسالتي الثانية.. إنني أبحث عنك، مؤلمة أحوالي النفسية وأنت لا ترد عليَّ.. عرفتُ بأنني منبوذة حتى من ذاك الشخص الذي لم يسبق له أن رآني أو كلمني. أرسل إليك صورتي

الذابلة علّك ترى فيها حجم شوقي إليك، أرجوك أكتب لي ولو كلمة واحدة، ضع في علبة بريدي ولو رسالة فارغة" .

"كلناز"

قرأ الرسالة سبع مرات.. تأمل كل كلمة.. غيرّ أماكن الكلمات.. كتب مرادف كل كلمة.. ووضعها بجانب كل واحدة كلمة أخرى تناقضها.. كبر حجم رأسه.. أحس بإنهاك تحت الثقل.. وضع الرأس على الأرض.. وتمدد.. أين يقودك التأمل يا راجي..؟ إلى صحارى مزروعة بأشجار الشربين.. إلى حدائق بلا أشجار.. إلى فراغ العالم اللا مرئي. إذا رفضتَ العالم فاعلم بأنه أيضاً يرفضك.. وإذا استقبلته.. فهو أيضاً سيستقبلك.. إنه بحاجة إليك وأنت بحاجة إليه.. أنت ترغم هذه الحالة على دمك.. كن حذراً يا راجي.. أي شيء تريد من العالم.. ضع لنفسك طريقاً وسر به.. أنت ضائع.. ستنتصر على أهوائك أولاً.. وستنضج على نحو أفضل.. في السنوات القادمة.. ستتفهم الحياة.. وتنسى التوتر.. اعتد على مواجهة هذه الحالة، لا تستخدم أقراصاً مهدئة.. إرادتك هي الدواء.. حساسيتك تنعكس على وضعك

الصحي.. وجسدك لا يحتمل بسبب سوء التغذية.. تخيل للحظات فقط كلناز.. انظر إلى صورتها الرائعة.. المرأة تعرف الطريق إلى قلب أي رجل في العالم.

هاهي امرأة تدخل حياتك.. وتفرض نفسها على تفكيرك.. ما الحزن.. ما الفرح.. ما الكآبة.. ما الاستقرار.. ما التوتر..؟

كن أوعى يا راجي.. رأسك الكبير هذا هو مصدر كل هذه الحالات.. إنه المركز.. المصدر.. لماذا تريد أن تعطّل القسم الخاص بالتوتر.. أو القسم الخاص بالكآبة..؟ هل تريد أن توقف الجملة الخاصة بالضحك..؟ الجملة الخاصة بالحزن تتغذى من جملة الفرح.. وجملة الضحك تتغذى من جملة البكاء.. هل تريد أن يتوقف عمل الرأس..؟ إذن.. اذهب حالاً إلى المشفى ليخدروك ويضعوا جسدك في براد الجثث.. أو اقطع رأسك الآن.. وسينتهي كل شيء.. أنت مجنون يا راجي.. أنت أحمق.. أنت تمر في حالة تكوين فكري.. لا تكن مغروراً.. أنت المجنون الأول في هذا العالم.. أتريد أن تتحول إلى حيوان ولا يؤثر فيك أي شيء يحدث لإخوانك..؟ أتريد أن تتحول إلى مخلوق عديم الحساسية..؟ انظر

يا راجيي.. أقترح عليك أن تستمتع بهذه الحالة قبل أن تنتهي.. أسرع..ستنتهي بعد لحظات.. ولن تلحقها.. احترم "حالة" تتعلق بك أنت وحدك.. واحتفل بها.. هاهي تذهب.. أسرع يا راجيي استمتع بما تبقى منها. هذه هي الحياة الحقيقية التي كان الماضي كله تمهيداً له.. انهض الآن في هذه اللحظة واكتب لكلناز.. اكتب لها عن أفكارك واكتشافاتك.. هيا يا راجي.. وحدها "كلناز" ستعرف كل شيء.. وحدها كلناز ولا أحد غيرها.. كلناز.. يا للاسم الرائع.. كل حرف ينبض بالشمس والحياة.. اكتب لها بحرية.. ودون قيود.. واعط الرسالة للموظف ليضعها فوراً في علبة بريدها.. وانظر في العلبة.. لتتأكد من دخولها.. هيا يا راجي.. اصنع امرأة واحدة بأفكارك.. حاول أن تخرج إلى الحياة العملية.. ستصنع امرأة من لحم ودم بأفكارك.. امرأة واحدة تكفي.. وعندما تنجب أطفالاً ستغرز في عقولهم أفكارك.. ويبدأ عالم جديد أنت تؤسسه يا راجي.. اصنع امرأة من /لا امرأة/.

هيأ راجي عبد الكريم نفسه وباشر في الكتابة.. أول رسالة طويلة يكتبها في حياته.. مضت الساعات.. تراكمت الأوراق.. وما زال مستغرقاً في الدرس الأول.. يكتب بجدية.. ويمزق صفحة كاملة إذا أخطأ في كلمة واحدة.. يكتب بأناقة وبخط واضح مقروء.. ست ساعات مضت وفرغ راجي.. نظر إلى الأوراق.. حملها وعدّ ثلاثين صفحة.. دسها في مظروف كبير.. وكتب العنوان..

أتدرك يا راجي خطورة ما أنت مقبل عليه..؟؟ أي أحمق أنت.. أتدرك إلى أي وادٍ ستوصلها أفكارك..

– وحدها كلناز.. كهدير الطائرة.. كصدى تخترق جداري.. تبللني أمطارها حتى وأنا تحت السرير.

لدى عودة السيد راجي من مبنى البريد فوجئ بكيس أسود في منتصف الحوش.. أخذه إلى الغرفة.. وفتحه.. سحب ورقة: "الليلة سأجيء.. زوجي مسافر.. انتظرني.. سأنط من فوق السطح".

عاهرات منتصف الليل.. قالها وقذف الورقة.. وقفزت إليه عبارتان واحدة لكناز والأخرى له:

لماذا تصر على ألّا نلتقي؟

– لأن اللقاء يغتال الشوق.

امرأة يا راجي تدفئك.. وأحس برعشة شهوانية تسري في قلبه: زاهية.. ستجيء.. إنها ناضجة.. ستدرّب جسدك على الجنس.. ستعلمه أصول العشرة بين الرجل والمرأة.. نهض من فرشته وأشعل المدفأة.. زاهية التي تسرق من بيتها وتعطيك، حتى قطع اللحم تلفها في كيس نايلون وتقذفه إلى بابك لتفتح الكيس وتأكل.

فتح الباب وخطا باتجاه الحائط الفاصل، وقف ورأى يدها على الحائط. هرول إلى الغرفة.. حمل الطاولة، وضعها بجانب الحائط واعتلاها..صار على مقربة منها.. أعانها في رفع جسدها.. وضعت الساعدَين على أعلى الحائط. وبغتة اندفع جسدها إلى الخلف وسقطت على الأرض.. نظر إليها: ماذا؟

– تزحلقت.. أجابت بخفوت

ورفع جسده إلى الجدار.. انقلب إلى الجهة الأخرى.. رفعها من الوحل..وحملها من الخلف.. فصعدت.. وببطء نزلت إلى الطاولة.. رفع هو الآخر جسده وبدأت تعينه على رفع جسده.. نزلت هي.. ووقف على الطاولة.. أمسك بيدها.. ودخلا الغرفة.

بدأت ترمي قطع الثياب الشتائية وتقترب بيدَيها من المدفأة.. وهو ينظر إلى مشهد امرأة تتعرى في بيت غيرها، قفزت عباراتها إليه: إنه لا يمل النظر إلى عورتي.. لقد أدمن هذه العادة التي تضايقني، في منتصف الليل ينهض كالمجنون ويشعل الضوء.. يكشفني ولا يهدأ حتى تنام نظراته على عورتي. عندما يعود إلى البيت ويراني منشغلة في المطبخ يهرع كالمجذوب ليرفع ثيابي وينظر، وإذا منعته يصير مثل المدمن.. لا يهدأ قبل أن استرخي له. في العيد الماضي ذهبتُ إلى أهلي.. وفي اليوم الثاني قاده إدمانه إلي.. وهناك أغلق باب إحدى الغرف وصار يأخذ جرعات نظر.. لم يحتمل أن يعيدني إلى البيت.. لا تقل لأحد هذا الكلام.. أخاف أن يسمعه فيعرف بأنني قلته.

ولكن راجي دس جسده تحت اللحاف قائلاً: عندما تخرجين أغلقي الباب.

وقعت العبارة كالرصاص على أذنَيها وعادت ترتدي ثيابها التي خلعتها للتو وخرجت مستفزة وهي تصفع الباب خلفها، عند ذاك سمع صوت الطاولة.. نهض رآها منقلبة على ظهرها في الوحل.. مد يده إليها.. ورفعها.. وقعت كفه الأخرى في كفها.. ووقفا في عتمة الشتاء ضغط على كفها برعشة خاوية من أي قوة.. واندفعت إليه.. ألصقت خدها بخده.. وعادا إلى الغرفة مرة ثانية.

قالت له: اخلع ثيابي..

واستجاب لها..

أي شيء آخر تريد يا مجنون..

قال: ممن ؟؟

قالت: من الحياة..

قال: هل تفهمين الحياة؟

قالت: الحياة هي الطعام الطيب.. والجيب المملوء.. والفراش المجوز الدافئ، هذا كل شيء في الحياة .

قال: المعرفة ؟؟

أجابت: المعرفة هي السبيل إلى رفاهيتك.. وعندما تكون مرفهاً لستَ بحاجة إليها. قادته إلى الفرشة.. وخلعت ثيابه..

– دعني أقبلك يا راجي.. يبقى الشاب الفتي يغري المرأة مهما كبرت..

ماذا تنتظر يا راجي؟؟

– أنا أفكر..

وبدت له متدربة جيداً.. وصار كتلميذ يتلقى تعليماتها:

لا تقذفك فيّ الآن .

وامتنع عن ذلك بالكاد.

سيذبل كل هذا الربيع في حديقة جسدَينا، وستتساقط الطيور ميتة من أعالي أشجار روحَينا.. همستْ في أذنه. أحس بنشوة العالم تجتاحه.. هاهي الحياة تمنحني أعظم ساعات اللذة.. مفهوم زاهية للحياة فيه الكثير من الصواب..

أي فعل آخر يقضي على إحباطاتي مثل هذا الفعل السحري.. هذا الذي من عادته أن يطفئ حرائق الروح.. جسدي

كله يتفتح في حديقة الحياة البهية.. وهذا الذي في أعلى ساقَي زاهية يفتح بابه المبارك ويناديني كلي لأدخل.. في لحظة حسدتُ ذَكَري.. وهو يتجول في تلك الحديقة البهية.. وخطر لي أنني كلي كنت ذات يوم في تلك الحديقة التي قذفتني ذات لحظة ولم تعد تستقبلني.. وخطر لي مرة أخرى معنى هذا التلهف للجنس.. فيه يتحقق الحنين إلى الماضي.. إلى شهور التكوين، ورأيتُ أعضائي كلها تزحف نحو المملكة عن طريق الذَكَر.. وتلتف حوله واستطاع أن يمتص كل أعضائي ويُدخلها إلى المملكة المقدسة.. عدتُ إلى موطني.. إلى مسقط التكوين.. وتشبثتُ بكل ما وقع بيدَي.. وصرختُ من أعالي جبال موطني: يمكن لكِ أن تعودي إلى بيتكِ.. أما أنا فلن أهبط ثانية يا زاهية.. لن أخرج من دفئي الأبدي.. سأكون هنا.. في قمتي الشاهقة.

سدّت أنفها بإصبعَيها موجهة الصوت إلى الداخل: انزل..سينفجر بطني.. هكذا تتعبني.

وجاء الصوت من الأسفل: وماذا سيغريني.. بعد أن رأيت النزول وعشته أكثر من ربع قرن. وكنت كل يوم أتوق إلى شهوري التسعة الحافلة الآمنة هنا.

– ولكنك ستقتلني.. سأخرج الآن إلى الشارع وأصرخ حتى يلتم الناس، فأقول بأن رجلاً جاء يركض مسرعاً صوبي وفجأة رفع ثوبي وحدث ما ترونه الآن.

قال: لن أخسر شيئاً.. حتى لو أجروا آلاف العمليات الجراحية لبطنك لن أنزل. هذا هو موطني.. موطن آبائي وأجدادي.. مسقط التكوين.

وأمام عناده استلقت زاهية على ظهرها في فرشته ويدها تربت على بطنها وشفتاها تتمتمان تحت عينَيها الناعستَين: هيا اخرج.. اخرج.. ما أروع الحياة..

هيا اخرج.. اخرج.. سأشتري لك ثياباً جديدة وحلوى.. وألعاباً..

هيا اخرج.. اخرج.. ستشاهد ضياء الشمس وتتخلَّص من الظلمات.

اخرج يا حبيبي اخرج.. الربيع في انتظارك.. الورود تتفتح.. البلابل تغرد في حياتك الجميلة..

هيا اخرج.. اخرج.. لترى كل هذه الأنهار.. والبحار.. وتتسلق الجبال.

هيا اخرج.. يا حبيبي.. حياتنا بهية كحلم سأغسلك وأطوف بك العالم..

هيا اخرج.. كل ما في الحياة جميل.. ليس فيها ألم.

وانغلقت عيناها.. توقفت شفتاها عن التمتمة. استفاقت على ضوء النهار.. تلمست بطنها.. رفعتْ رأسها. رأته يقبع في زاوية والدماء تنز منه.. كأنه خرج للتو من برك دم. راحت تغسل رأسه في طشت وتغسل عن جسده كل آثار الدم، ثم نشفته ووضعته في فراشه، غطته باللحاف وهدهدته إلى أن نام، ثم أغلقت عليه الباب جيداً حتى لاتأكله القطط وانصرفت.

كلناز آخر حلم يتحطم.. لا فائدة يا راجي.. يبدو بأن الألم لن يتركك..احذر أن تمس كلناز بكلمة سوء.. هي الشخص الوحيد الذي بقي لك في الخارج.. دعها في الحلم.. إلى الأبد.. دوماً

الحقيقة تحمل معها شيئاً من الفساد.. وحده الحلم يبقى نقياً.. وحده الأعمى يرى الأشياء الجميلة التي لا يمكن لك أن تراها بعينَيك.. وعندما يقدموا لعينَيه العلاج.. ستفسد تلك الأشياء الجميلة وتبهت الألوان.. وتجشع الأصوات وعندما يفتح عينَيه لأول مرة سيرى الظلام الحقيقي الذي لم يره من قبل.. وعندئذ إما أن يعوّد عينَيه على هذا الظلام ويوهمهما بأنه نور، أو يفقأهما في أقرب فرصة ليعود إلى نوره الأبدي.

مرة أخرى يحتلك البؤس، وأي بؤس يقتلعك من جذورك، لا يخنقك ولا يدعك تتنفس. هاهو الشقاء يعود، على ما يبدو أنك ستدفع ثمن لحظات اللذة تلك، تُرى هل تتألم زاهية مثلك هل تدفع الثمن؟ لا أصدق ذلك أبداً إنني أكاد أسمع شخيرها.. يا إلهي أي شيء أصابني؟!

أحس بالجدران تحاصره فتح الباب وخرج، أحس بجدران الحوش تحاصره، خرج إلى الشارع ولم يرتح، بدت روحه تتفرغ في حلقة: "إنها النهاية" قالها راجي وطرق أقرب باب.. طرق بقوة، إنه بحاجة إلى أي شخص يُحدّثه، إلى أي حيوان، إنها

اللحظات الأخيرة: مَن.. مَن..؟ جاء صوت مذعور من خلف الباب.. هبط قلبه وتراجع إلى الوراء: مَن.. مَن.. لحقه الصوت الراجف المذعور .. وتراجع إلى الوراء..دخل باب الحوش.. وأغلقه بصمت.

نظر إلى الساعة كانت الرابعة فجراً.. بدت له الفرشة على شكل كفن.. طوى الصفحة التي كتبها إلى كلناز.. دسها في مظروف.. ارتدى ثيابه وخرج، في تمام الساعة السابعة والنصف صباحاً كان يضع الرسالة في البريد بيدٍ مرتعشة وهو يشعر بأن شبح صوت جاره مازال لم يبرح أذنه، وفي بعض اللحظات يتحول الصوت إلى شبح أمام عينَيه.

أصبحت الحياة جحيماً لا يطاق.. فقدتُ القدرة على المقاومة.. أعاني حتى من قطرة ماء أجرعها.. من كسرة خبز تأخذ شكل أفعى أمام فمي.. من خطوة تبدو مرعبة وتهبط بي لأعماق بئر.. من لحظات الاستلقاء.. وتكبر معاناتي لحظة بعد لحظة ولا شمعة أمل واحدة في عالم ظلمات يحيط بي.. أي مخلوق أنا لأحتمل كل هذا الجحيم.. ولأجل أي شيء احتمل..

إنه صراع مخيف.. مهلك.. لكن سأكون عنيفاً في مقاومته.. وكل ما أستطيع أن أفعله في عنفي هو قدرتي على مدى إقناع نفسي بالانسجام مع هذا الجحيم ومحاولة فعل شيء من خلاله.. هذه هي خطوتي الأولى للتخلص من وطأة ثقله على كل لحظات عمري.

– ما تزال تتعلم.. إنك بحاجة إلى أن تتعلم..

– لكن أخطائي لا تنتهي.. وهذا يؤلمني.

– الأخطاء التي خفتها، بنت أركانك لبنة لبنة عندما لا تخطئ فإنك لن تصيب، ما يفيد أن تكون قادراً على تمميز الصواب من الخطأ.. والشر.. كل الشر أن تفقد نظرة التمييز.. أن يستولي الخطأ على مفهومك.

أنت لستَ مُطَالَباً من أي جهة كي تكون بلا خطيئة.. ولكنك تتعلم من تلك الخطيئة وتمدّ الخطوة نحو المعرفة.. كلما تُخلّف خطيئة.. تَنكشف أمام روحك خطيئة.. حتى إذا علمت أنك لن تبلغ آخر خطيئة ولن تبلغ آخر المعرفة.

– إن خوفي يتضاعف على المستقبل.

– الذي أتى بالإنسان، فإنه لا يتخلى عنه.. الإنسان استطاع أن يصنع أشياءً طيبة.. لقد أثبت بأنه يجيد الغناء وزرع الورود.. إنه مخلوق قادر على أن يحب أكثر مما يكره.. أن يسامح أكثر مما يعاقب. للإنسان صاحب، إنه ليس مخلوقاً ضاع من صاحبه في كوكب مجهول.

عندما تمتدّ يدٌ لتؤذي شخصاً فإنها لن تصل قبل أن تؤذي صاحبها أولاً.

عندما تمتدّ يدٌ لتعين شخصاً فإنها لن تصل قبل أن تعين صاحبها أولاً.

إن الإنسان أسمى من أن يُخاف على مستقبله، لكن عليك أن تروّض نفسك على تحمّل المصائب الكبرى.. أن تتوقع على الدوام ما لا يمكن له أن يقع.

ستبقى نفحات الحياة في العروق هي المدهشة، سيكون بإمكانك أن ترفع نظرك إلى أعلى سماء، سيكون بإمكانك أن تغوص بنظراتك إلى أسفل أرض، سيكون الألم لبنة الحياة، ستكون كل تلك الذكريات قوائم بيت بَنَيته بطين الروح.

ستضحك يا راجي لكل ما يهتز من حولك وفي ذروة انسجامك مع التفاصيل النابضة ستدرك أنك نضجت تمام النضج وسترقص بسرية في ظلمة لا تنتهي، وبرغم كل ما سيكون ستبقى علاقتك بالحياة هي العلاقة الأكثر إثارة، الأكثر دهشة، الأكثر عمقاً.

تلك الحياة التي لن تعود، هنا بإمكانك أن تفعل كل شيء وهناك عندما تنطفئ لن يكون بإمكانك أن تفعل شيئاً.

لكن هل يمكن لموت الأم بهذه الطريقة أن يولّد كل هذه الحساسية في حواسي؟ سأبقى أحن إلى ذاك الصوت الذي لن أسمعه أبداً، سأبقى أحن إلى ذاك الرسم الذي لن يعود.

كل طفولتي مختبئة في نهدَيها كنتُ أرضع منهما الحليب وأودع فيهما طفولتي، هل ستموت كلماتها التي كانت تقولها لأبي في ليالي الشتاء الباردة؟ هل ستموت تلك الطقوس الزوجية الحميمة التي كانا يصنعانها؟ سأتذكر حتى التفاصيل الصغيرة في ذاك البيت المنسي الذي كان يشبه أحياناً الكنيسة المغلقة، أو الجامع المغلقة، أجل فإنني حتى الآن كلما أمر بجانب كنيسة أتذكر أمي، وكلما أمر بجانب جامع أتذكر أبي، كانت تقول:

يا بدران عندما لا أحترم طقوسي الدينية فإنني لن أحترم طقوسك، وعندما أخلص لمعتقدي فإنني سأخلص للحياة الزوجية معك، يوم الأحد مقدّس لدي، هو اليوم الوحيد في الأسبوع الذي يحمل اسم الله، ألا تظن أن الأشياء التي تحمل اسمه تكون مبارَكة، الأديان الطيبة هي التي تربط الناس جميعاً، المحبة السامية هي التي تجمع الأديان ولكن الكراهية تفرق بين أبناء الدين الواحد، ألا تؤمن بأن الله هو الأحد فلماذا لا تحب يوم الله.

وكانت تردد له آيات من القرآن وأكثر ما تردده: "إن الذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

وتقول: يا بدران إنك لن تكون مسلماً قبل أن تكون مسيحياً لن تكون مسلماً قبل أن تشهد أن عيسى رسول الله.

راجي..

اليوم في الثامنة صباحاً فتحتُ عليه بريدي ووجدتُ رسالتين منك واحدة وقعت في ثلاثين صفحة والثانية في نصف صفحة وأصارحك أنني للهفتي إليك قرأتهما داخل مبنى البريد ولم أصطبر لحظة واحدة بعد أن وقعتا في يدي وحتى الآن وقبل دقيقتين قرأت الرسالة الطويلة للمرة الرابعة والقصيرة للمرة السابعة، وكلما ملأتني الطويلة بما لم يسبق لي أن تخيلتُ تعلّمه لا منك ولا من غيرك ولا حتى من عمري كله، جاءت المبتسرة لتصفع كل حواسي وتلغي الذاكرة والحلم، رسالتك الطويلة التي يبدو لي أنك حرصتَ عليَّ كثيراً حتى قدّمتَ إلي خبرتك في العيش لتعلّمني هذا النمط وأنا سأظل مدينة لك وسأواصل قراءتها في أحلك ظروف قلقي بعد أن أجعلها كتيِّباً مجلداً بعناية، وبالنسبة للاسم لا يهمني إن كان اسمك راجي أو عبد الله أو رقم علبتك، أنا واثقة بأنني كنت أبحث عنك. وليس بالضرورة أن يأتي الصواب من الصواب، قد يكون العكس ويولد الصواب من الخطأ. أريد أن أتحدّث معك عن عزلتك التي أحببتها بقدرك

أرجوك أن تحقق لي هذه الرغبة وتعتبرها مطلباً إنسانياً أو حتى شخصياً وتتمكن من الاتصال الهاتفي بي على رقم منزلي المدوَّن في أسفل الصفحة.

في أمسية اليوم التالي وقف السيد راجي عبد الكريم أمام كوة الهاتف الداخلي دس قطعة معدنية في أعلى الجهاز وأدار القرص بحركة متواصلة، جاء صوت فقال بسرعة: أريد كلناز.

أجاب الصوت: أنا هي.

صمتَ راجي واعتراه خجل وأحس برغبة عصبية في وضع السماعة مكانها، لكن الصوت لم يدع له مجالاً حينما تواصل: مَن.. راجي كنتُ بانتظارك، أقسم لك بمقدساتي هل تصدقني؟

– الليلة؟

– نعم وفي هذه اللحظة.

كيف؟

– هناك من أعلمني بدون صوت ولا رؤية، أنا واثقة وصدقته، منذ نصف ساعة ونظري في الهاتف ولو لم تتصل الليلة لما اتصلتَ بي أبداً أو لم أكن أصدق بأنك ستتصل.

– أنا أتمزق أعاني حتى من قطرة الماء التي أبتلعها، أتألم حتى وأنا في الفراش.

– راجي أنا أتمسك بحجم معاناتك، عظمة الحياة في قاعها، في درجتها السفلى، وبالنسبة لي أرفض صعود نصف درجة إلى الأعلى. الذي يعيش في الأعلى يدوس على الأسفل، إما أن يكون في الأسفل معنا أو في الأعلى فوقنا، هؤلاء الذين يُشبّهوننا بالحشرات عندما يكونون في سياراتهم ويروننا نذهب إلى أعمالنا سيراً لأنّنا لا نملك ما ندفعه لسيارة النقل الداخلي، إذن نكون كالحمير فيملأوننا بالغبار صيفاً وبالوحول شتاءً، نحن تراب الأرض ونحن الأرصفة نحن الطين أتسمعني يا راجي، إذن تكلم.

– بردان جسدي كله مبتل بالبرد على ما يبدو بأنني الوحيد الذي أدفع ضريبة قبول الله لدعوات المزارعين بهطول المطر، عندما يقبل أنا الوحيد الذي أكون الضحية.

في هذه العزلة أطفئ أيامي كما يطفئ الإطفائي النار التي تأكل بيته. لقد فقدتُ كل شيء يا كلناز، شيء غريب، لا يوجد حل وسط في هذا الواقع، إما أن تخسري كل شيء، وإما أن

تربحي كل شيء، وإن ربحتِ كل شيء، خسرتِ وجودك في هذا العالم السافل!

– وهل هناك أسمى من أن يربح الإنسان وجوده في عالم منهار.

– ولكنني أدفع ضريبتهم كلهم، أدفع ضريبة هذا الموت الغير طبيعي. عندما يقتنع الميت بأنه مات تموت المشكلة ولكن المشكلة الكبرى أن هؤلاء الموتى لا يعرفون بأنهم موتى، إنهم لا يتركوننا سالمين، حتى في دركنا المظلم، يأتون في منتصف الليل ويحطمون أبوابنا يركلون ظهورنا في الطرقات ويرغمون علينا أن نغسل وجوهنا ببصاقهم وأجسادنا ببولهم.

كلناز اسمعيني هناك توجه شبه عام للاهتمام بكل ما هو منحط وانهزامي ومنهار، الذين يضحكون على الجميع يبحثون عن الذين يباركون لهم هذا العمل اللا إنساني، يركزّون على المشاهير والشخصيات اللامعة ليباركوا لهم هذه الأعمال. كل شيء يُضحك ويُبكي ويُسخط. أنا لستُ راضياً عن كل ما يحدث

ولكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى أن أدين ذلك بالكتابة. لكن يبدو لي أن الكتابة وحدها لا تكفي هذه اللعبة.

وبغتة انفصل الخط، للتو عرف السيد راجي بأنه يقف في منتصف السوق ويتحدث في هاتف عمومي، مدّ يده إلى شق الباب ورأى ثلاثة رجال ينتظرون خروجه.. أقفل السماعة وخرج دون أن ينظر إليهم.

في البيت استطاع أن يقنع نفسه بنسيان اسمها وعدم الرد عليها وخلال ستة شهور يتسلم رسائلها ويمزقها قبل أن يفتحها وفي الشهر السابع تلقى رسالة مضمونة في ظرف كبير، عندئذ عاد إلى البيت وبدأ يقرأ:

راجي يا إلهي حتى الهواء يخنقني كم يبدو ثقيلاً على نفسي إنها المرة السابعة ولا جدوى حتى القلم يأبى أن يسير هادئاً أصبحت الكتابة إليك تخيفني كثيراً ياه "إليك" منذ سنتين ونحن نتراسل غرست في رأسي أفكاراً لن تمحو رغم إصرارك القاتل على عدم اللقاء إلى أي درجة قد نسيتُ نفسي إلى أي درجة تخليتَ عني لم يعد هناك ما يشجعني حتى الكتابة إليك،

الآن أدرك ذاك السر الذي يسعى إليه الآخرون كم كنتُ مغفلة نسيت أن دماء الميت المتجمدة في عروقه لا تعود فتسري فيها الحياة بعد موت مؤلم أفكر الآن كم سأعيش؟ مرحلة زمنية واحدة لا غير ها أنذا في العشرين وتغدو الوردة أكثر ذبولاً والشموع في ريعانها تنطفئ قبل اشتعالها بالوهج، عشرون عاماً سيغدو عمري أسقطتُ الزمن الفائت لأني هكذا وبلا مسوغات لم أعشه ألا يحق لنا أن نرفض زمناً لم نعشه ما الذي يجبرنا على الاعتراف بسنوات كل ما فيها محل وجفاء تخاصمني أنت الآن كالزمن وقد حلفتَ بعمري ذات مساء ألا نفترق لماذا.. لستُ أدري.. كانت سنوات سوداء لم نر فيها غير الرماد والفجيعة وصرخات الألم والشوق. رغم سعة معانيها التي نفتقدها اليوم كنتُ أقول دوماً: لحظة واحدة إن ضاعت من عمر أحدنا فكنوز العالم وسنوات الدهر لا تعوضها فكيف إذن أرجع سنوات إلى الأمام، مَنْ أعطى الزمن هذا الحق في اصطياد الحياة، تذكر في تلك الرسائل المنسية ما كتبناه وما استمعنا إليه من موسيقى وما تبادلنا من هدايا وبطاقات وصور أتذكر حتى الثياب كنت تضعها في صندوق بريدي

رغم حجمها اللا معقول كنا نخاف أن تضيع لحظة منا دون أن نقرأ رسائلنا وكنا ندرك أنها كالتراب في فراغات الأصابع لا يبقى إلا للمحة بصر ويتلاشى مع نسمة صغيرة، ورغم هذا كان الأمل عالماً بكامله، جبلاً، أين هي تلك اللحظات المشرقة ضاعت، ماتت، هل أنا أفكر بها الآن.. أؤكد لك أني لم أعد أفكر لم أعد أقرأ رسائلك هل هناك سعة لأن أحب، أحب من..؟!

هناك الكثيرون في الشارع في الحي خلف زجاج السيارات يمدون أعناقهم يتغذون بوجه بريء لم يمر الصباح ببكارته عليه فَيغسل عنه طفولة محببة هؤلاء يسرقون البكارة مثلما يسرقون الخبز والنبيذ والصلوات، بدأتُ لا أكترث لشيء، إنكسار هائل في روحي لا يرحمني طوال الليل، يجلب ليَّ أوجاعاً، لا أقدر على النوم، إنني أعيش مرحلة انكسارات كل شيء ينكسر حتى الرأس والقلب. هل كنتُ أحلم.. لا أصدق أن وسادة ما تحتوي على دفء حلم واحد يخصني في هذا البيت أذكر أن نشوة خاصة كانت توقظني ما بين أسبوع وآخر، المهم كان هناك شيء جميل حتى رسالة توبخني بها كعادتك ما أزال أشعر باللذة المباغتة

حين أتوهم انتظارها، أذكر حين كنت تملأ حياتي تسحقني من جذوري واستوليت على كل لحظة من تاريخي ومستقبلي، أنا لا أستطيع أن أنساك للحظة واحدة وكم حاولتُ أن أنظر إلى رجال، أن أجد البديل لكنني فشلت /وأصارحك/ أنني راغبة في الانتقام والرد وأؤكد أنه يوجد من يحقق لي هذا لكنني عاجزة، كل شيء سيموت دونك حتى لو ربحت العالم، حتى الدفء سيمسي صقيعاً ما أجمل الوهم حين تعتنقه الأيقونة، يا لرائحة دموعي التي تحترق على المدفأة رائحة احتراق الروح الآن أتحاشى حتى النظر في وجه ما قد يذكرني بحلم كبير، أتحاشى النظر في عَيني المرهقتين وما تحتهما من ظلال تجمعت بفعل فقر الدم أتحاشى القلم لأن فيه ماس يكهرب روحي يذكرني بأول مرة حين راسلتُ شاباً اسمه "عبد الله" ووولد مجنون اسمه "راجي" تلك الرسالة الذكرى اتحتفظ بها بربك، كم أنا مشتاقة لها سأنظر إليها فقط وأبكي ساعة، هل تحتفظ بي يا راجي وبرسائلي؟ يبدو أني أهلوس، لا عجب في ذلك، فأنا لا أجيد سوى الكلام الذي يشبه الثرثرة القاتلة، هي حالة الصمت المطبقة وقلة الهواء في الغرفة

تسبب كل هذا الاختناق في صدري وحنجرتي، هل أبحث عن أصدقاء جدد عن علاقات أخرى لقد أصبح هذا كريهاً على نفسي، ما أفعل إني متضايقة، وأحس باختناق هل سأرى صباحاً جديداً لا أدري إن كنت سأرى الشمس ثانية تسطع في سمائي، الغيوم تتكاثف وتستعد لعقد مأتم رهيب.

بعد أن تنتهي احتفالات العالم يبدأ احتفالي بعد أن تنطفئ مصابيح الكون يشتعل مصباحي وبعد أن تقرر الموسيقى الراحة تشعلني ألحاني وتضرم الحريق في المخيلة. هل أمضي عكس العالم أم هو يناقضني، هل أن نائم أم هو، هل أنا يقظ أم هو..؟؟ أنا خائف لأول مرة من أشياء لا أريد الوقوف على حجم جحيمها.. كلناز بمقدورها أن تهز الصدى بأنوثتها، ربما أحتاج إلى لمسات أنثى تهندسني ترغم عليَّ وقائع لا أعرفها الآن، وقائع تولد مع ولادتها في عزلتي الأبدية الرائعة التي تمنحني كل أسباب التواصل، ليس بوسعي أن كون مشمساً طوال الوقت ولا مظلماً إنني جزء من الحياة ويموت جزء منها عندما أموت مثلما ولد جزء عندما ولدت.

في لحظات ما يمكن للإنسان أن ينسى كل شيء أن يتخلى عن أحلامه التي تبدو قزمة أن يحطّم كل ما يقع تحت يدَيه وقدمَيه وجسده من أجل التمسك بشيء ما، هذا الشيء ليس بوسع أحد أن يطلق عليه تسمية واحدة، وبوسع كل شخص أن يطلق عليه اسماً يعنيه أي اسم يخطر بباله، ما يهم أن هذا الاسم

يحسسه بالمعنى. لحظات ما من عمر هذا الإنسان بمقدورها أن تحطمه، بمقدورها أن تبنيه بمقدورها أن تحيله إلى مجنون، بمقدورها أن تجعله عبقرياً، بمقدورها أن تحرك عالماً من الصقيع وتضرم فيه النيران، وبغتة يتحول هذا الشيء إلى القضية.. قضية الإنسان الكبرى ويستعد للتخلي عن العالم كله في سبيل الوصول إليها وحتى في سعيه يشعر بالانتصار على الفراغ القاتل واللا جدوى يشعر بالانتصار على الحياة كلها، عندئذ فقط يستيقظ فيه كل ما كان نائماً ويشتعل بالحياة ويدرك كم كانت حياته فارغة.

قذف راجي عبد الكريم الرسالة وارتدى ثيابه حلق ذقنه، لمّع حذاءه، أشعل المذياع والكهرباء وكل ما يمكن أن يشتعل في الغرفة وفيه وخرج.

ساعة العصر هذه تبدو أثمن ساعة، الشوارع تكتظ بالناس والحيوانات الصغيرة.. قطط.. دجاج.. عصافير.. وثمة عجائز تحت الشمس بالقرب من الحيطان الترابية المائلة التي تكاد تسقط.

الآن بوسعك يا راجي أن تدرك قيمة الحياة وتكتشف أسرارها وتنظر إلى كل هذه المناظر بفرح العالم. الحياة على صواب بشكل دائم لا بد من كل ما تراه إنك تتعلم حتى من دبيب نملة وصوت عاهرة وقديسة.. كل مخلوق يقدم الحياة بطريقته.